غابرييل شلّيطا

سقراط وتوماس مور

رسائل خياليَّة



قدّم له المطران
يوسف بشاره

دار سائر المشرق

غابرييل شلّيطا

سقراط وتوماس مور: رسائل خياليَّة

الطبعة الأولى
٢٠١٦

جديدة المتن - سنتر بايلايان - الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس -01900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-034-6

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecoupleart.com

مقدمة

عرض عليّ الأستاذ أنطوان سعد أن أضع مقدّمة لكتاب الأستاذ غابرييل شلّيطا: "سقراط وتوماس مور: رسائل خياليّة". وبعد الإطلاع على مضمونه، أعجبني، ليس فقط للتقارب بين حياة توماس مور وسقراط وما آل إليه مصيرهما وما اتّسمت به حياتهما من صدق وتمسّك بالحقيقة حتى الموت، بل لأنَّ هذه الرسائل الخياليّة ضمّنها المؤلِّف عصارة اختبارات ومواقف تصلح لأن تكون مجال تفكير وقدوة للكثيرين ممّن يتعاطون الشأن العامّ ويمارسون السلطة والسياسة دون أن يتحلّوا بالمتطلّبات الأخلاقيَّة والإنسانيَّة التي يقتضيها القيام بمهامهم ومسؤوليّاتهم حتى تكون في خدمة الآخرين.

ولذلك لا يتوانى المؤلِّف عن ذكر الموبقات التي على كلّ مسؤول وصاحب سلطة أن يتحاشاها: من نفاق وحبّ المظاهر وعدم ربط القول بالعمل وعدم الإخلاص والوفاء والطعن بالآخرين وتبدّل الصداقات تبعًا للأهواء والمنافع وحبّ التزلف استرضاء لذوي المناصب، والغرور والإدعاء الفارغ. ولقد أورد المؤلّف هذه العناوين ليدحضها ويبيّن زيفها، بعبارات قاسية فيقول مثلًا: "نحن وحوش... ونستوحش لأنَّنا نرتكب الفظائع... من يشغل مراكز السلطة تكون أجهزة المعلومات متاحة له وبقليل من الموهبة، سيتمكّن من استخدامها كأداة للخداع، ومن الخداع ينتقل الى التقاعس عن العمل." (ص. ٦٣). "هناك من يفقدون إنسانيّتهم من أجل المال واولئك الذين يفقدونها من أجل السلطة" (ص. ٦٤) من يستملك السلطة لا يريد أن يتخلّى عنها. يريدون أبديَّة السلطة. (ص. ٥٦).

لكن المؤلّف لا ينكر الإستثناءات: ''هناك شجعان يمارسون السلطة بكرامة ويبقون أوفياء لمبادئهم.'' (ص. ٤٠). غير أنَّ هذا يتطلّب استعدادًا: ''هناك أناس لم يتهيّأوا لممارسة السلطة، وهذا خطير لأنّهم ينبهرون بسرعة ولا يتمكّنون من التمييز بين التمليق والصداقة. في نهاية المطاف ننسى أنَّ السلطة ليست دائمة وليست أداة للمصحلة الخاصة.'' (ص. ٥٥).

وهذه الممارسة تقتضي الحرّيّة: ''يلزم على السياسيّ أن يكون حرًّا كي يتمكّن من تأمين الحرّيّة لمواطنيه، وأن يعطي الفرص للناس كي يصيروا أبطال قصصهم. لا لحجب المعرفة، لا للعبث بالحريّات.'' (ص. ٨٥).

ويولي المؤلّف أهمية خاصة للشباب: ''لكي ننقذ شبابنا من المآسي، يجب أن نعطيهم الأمل، لا الأمل الكاذب المضلّل، المتبرّج... بل الأمل الحقيقيّ، فوحده سيحرّرنا من الدمار.'' (ص. ٨٦).

غير أنَّ القضية الكبرى التي واجهت كلًّا من سقراط وتوماس هي التمسك بالحقيقة، مع علمهما بأنَّ موقفهما سيقودهما الى الموت. وهنا يتجلّى موقف المؤلِّف، فيقول على لسان سقراط: ''التخلّي عن وظيفة بسبب رفض القيام بما يُعتبر غير صحيح ليس سقوطًا... لأنَّ الانتصار هو شعور يقترن بالرضا... الضمير يأمرنا ولا يتخلى عنّا أبدًا.'' (ص ٩٠).

''يريدون تجريدنا من أثمن شيء نملكه، الحياة ولكنّهم لن يستطيعوا. ودون غطرسة أقول لك إنّنا باقون. سنترك بذور أعمالنا في الآخرين.'' ''لقد بذلت شبابي من أجل قضيَّة وسأبذل حياتي للقضيَّة نفسها.'' (ص ١٠٣).

كما يقول على لسان توماس مور بعد مواجهته لمن يحكمون عليه: ''...لن يولوا أيّ اهتمام لما سأقوله أو لما فعلته ولا للإنسان الذي كنته. سيجلسون وسأقف. سأكون مرهقًا ولكن واقفًا. سأموت منتصبًا. لن أنكر القيم الثمينة التي دافعت عنها طوال حياتي.'' (ص ٩٩).

ختامًا، أشكر للأستاذ أنطوان سعد اكتشافه هذا الكتاب وترجمته إلى اللغة العربية ووضعه في متناول الجميع ولا سيما أهل السياسة ومتعاطي الشأن العامّ الذين أدعوهم الى مطالعته بتمعّن وتبنّي الكثير من مضامينه لأنّه زاخر بالأمثولات والتوجيهات المفيدة فكريًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا. وما أحوجنا اليوم وخاصّة في لبنان والعالم العربيّ الى هذه الأفكار والمفاهيم والقيم التي يحتويها الكتاب لأنّ اعتمادها يصلح اعوجاجات كثيرة ويصوّب الأهداف التي من أجلها يجب أن يعمل الإنسان ولا سيما كلّ صاحب سلطة.

حسب المؤلف والمترجمة والناشر أن يلاقي الكتاب ما يستحقّه من انتشار وإطلاع عليه ليكون مثال سقراط وتوماس مور خير مثالٍ وشاهدٍ للحقيقة وحافزٍ على الخير العامّ. وليجد السياسيّون في القدّيس توماس مور شفيعًا لهم، كما أعلنه البابا القدّيس يوحنا بولس الثاني سنة ٢٠٠٠.

قرنة شهوان، في ٢٨ أيلول ٢٠١٥

المطران يوسف بشاره

إلى ميشال تامر

توطئة

هذه رواية مؤلّفة من رسائل.

هما صديقان يتراسلان، ومع مرور الوقت يُبديان أساهما إزاء أحداث الحياة اليوميَّة. يتكلَّمان في السياسة والسلطة والحياة كما في الإحباط والأمل. يتبادلان فنون الاقناع حول ضرورة العمل السياسيّ من أجل عالم أفضل. يخشيان حكم الضمير أكثر من حكم القضاة المتسرِّعين.

أستعير إسميهما من عملاقين من عمالقة التاريخ: سقراط وتوماس مور. وقبل عرض تلك الرسائل، أقوم بتوضيح وجيز لحياة كلّ من الفيلسوفَيْن اللّذين ألهماني في بناء هاتين الشخصيّتين في كتابي.

سقراط

سقراط هو فيلسوف يونانيّ وأوّل مفكِّري أثينا. يشكّل مع أفلاطون وأرسطوطاليس ثلاثيَّة الفلاسفة اليونان الكلاسيكيّة. أمّا أهمّيته فهي كبيرة إلى درجة أنّ كلّ الفلاسفة الذين سبقوه عُرفوا بفلاسفة ما قبل سقراط. وقد ترعرعت الفلسفة السابقة له في المناطق الأيونيَّة من اليونان وليس في العاصمة أثينا. يعتبر أكبر عَلَم من أعلام الفلسفة، هو أهمّ من طاليس الملطيّ وأناكسيمندرُس الملطيّ وهيراقليتُس الأفسسيّ وبرمينديِس الإيلياني.

لم يترك سقراط كتابات، ولكن جلّ ما نعرفه عنه مستمدّ من أعمال تلميذه أفلاطون ومن كسينوفون، لاسيما من كتاب المخلّفات التذكاريَّة، أو كتاب ذكريات سقراط، ومن أرسطوطاليس أيضًا، رغم أنَّه لم يكن معاصِرًا له.

ولد سقراط في أثينا، اليونان، في عام ٤٧٠ ق.م.، وتوفِّي في المدينة ذاتها، في عام ٣٩٩ ق.م. كانت أسرته متواضعة، فوالده سوفرونيسكوس كان يعمل نحّاتًا، ووالدته فيناريتا كانت قابلة.

تزوَّج من شانتيبا التي كانت صعبة المزاج، وفقًا لكاتب السِّيَر اليوناني، ديوجينسلاريتوس. ومن هذه العلاقة وُلد لامبروكليس. وكان لسقراط امرأة أخرى، اسمها ميرتون، ولا أحد يعرف على وجه اليقين إن كان متزوجًا من المرأتين معًا أم لا، وهذا يعود بسبب مرسوم استثنائيّ، كان يهدف إلى إعادة إحياء أثينا، بعد الخسائر البشريَّة التي أحدثتها الحروب، وهذا ما سمح لكلّ مواطن بزوجة ثانية والإنجاب منها؛ ومن ميرتون، أنجب سقراط سوفرونيسكوس ومينيكسينوس.

كان سقراط نحّاتًا كأبيه، وعلى الأرجح أنّه مارس النحت طوال حياته، أو بشكل متقطّع، وكانت هذه المهنة مصدر دخله الوحيد، لأنَّه لم يكن يستحصل على أيِّ بدل من التعليم.

خدم في الجيش الأثينيّ خلال الحروب ضدّ إسبرطة (٤٣٢ ق.م.) وضدّ طِيبة (٤٢٤ ق.م.).

يوجد تمثال لسقراط في متحف المتروبوليتان للفنون في نيويورك، يجسّده كرجلٍ أصلع ذي لحيةٍ قصيرةٍ وأنفٍ كبيرٍ. كان قوي البنية، يمارس الرياضة، وقد اعتاد ارتداء ثوبٍ طويلٍ والسير حافي القدمين. يقال إنَّه لم كان يغتسل كثيرًا!

ذات مرَّة تنبّأت عرَّافة دلفي[1] لكيروفونتي بأنَّ صديقه سقراط هو أكثر الناس حكمة. أُعجب سقراط بهذا الكلام وكان حينها في الأربعين من عمره، لذلك قرّر أن يسأل مواطني أثينا لماذا يعتبرونه من أكثر الناس حكمة؟ بعد طرح بعض الأسئلة، توصّل إلى أنّ ذلك يعودلكونه يدرك جهله، خلافًا للآخرين. فهو صاحب هذا القول الشهير: «أعلم أنِّي لا أعلم شيئًا.»

تتلمذ على أناكساغوراس ودامون وأرخلاوس الطبيعيّ. خلافًا للفلاسفة الأيونيِّين والسفسطائيِّين، الذين كانوا يتجوّلون في أثينا، فقد وضع سقراط فلسفةً خاصّة به ترتكز على الإنسان. قال فيها إنّ العقل شيء متأصِّل بالجنس البشريّ، موهوب لكلّ إنسان. أمَّا دور المعلِّم فيقتصر على تخريج الأفكار مثلما كانت تفعل والدته القابلة، عندما كانت تساعد الأمهات على وضع أطفالهن في الحياة. فهم أصلًا كانوا مهيّئين، والمعرفة كذلك، فهي تشبه توليد الأفكار.

كان يرتكز نشاطه الفلسفيّ على منهج الحوار الذي يتكوّن من مرحلتين.

---

١ – دلفي: مدينة تقع بسفح برناس الجنوبيّ. كان في معبدها الرئيسي هيكل الإله أبولو عرَّافة اسمها بيتيا أو سيبيلا تتنبأ، اشتهرت باسم عرَّافة دلفي.

في المرحلة الأولى، وتسمّى: التهكم، يقوم دور الفيلسوف على حثِّ محاوره من أجل تقديم وجهات نظرٍ مختلفةٍ حول موضوعٍ معيَّنٍ وبعد إيقاعه في شبكة مربكة من خلال إجاباته، يُظْهِرُ له فيهاً جهله. خلال هذه المرحلة، كان سقراط يتظاهر بجهله بالموضوع كي يتمكَّن من طرح الأسئلة على محاوره، محاولًا بذلك إيقاعه في التناقض، فهذه كانت طريقته لدفع الآخر للاعتراف بالجهل. أمَّا المرحلة الثانية من الجدل السقراطيّ وتدعى: مرحلة التوليد، أي مرحلة توليد الأفكار. فقد كان الفيلسوف، في هذا المنهج، يحثّ محاوره على إعادة تشكيل مفاهيمه، لكي يحصل بالفعل، وانطلاقًا منها، على وجود أصليّ وأوّليّ. وكان سقراط يستعمل هذه المنهج مع كلّ الناس، حَدِثِين كانوا أو بالغين، بما فيهم العبيد المحرومين عادة من التعلّم! ويقال إنّه ذات مرَّة حمل عبدًا من العبيد على تبيان نظريَّة فيثاغوراس مستعملًا هذا الأسلوب. وفقًا لكسينوفون، غالبًا ما كان يُعثر عليه حيث يوجد جمعٌ كبيرٌ، هو يتكلَّم وهم يصغون اليه!

اعتبره كثيرون حكيمًا، وآخرون سخروا منه وأساؤوا إليه. لكنَّه كان يصبر على ذلك. يقال إنَّه كان دمثًا، ويملك روح الدعابة.

تمكَّن سقراط من أن يكون مَعْلَمًا حقيقيًّا في الفلسفة، فكما ورد سابقًا، كان المسؤول عن العبارات المتداولة مثلما قبل سقراط وما بعده.

خلال حكم الطغاة الثلاثين، الذي فرضه القائد الإسبرطيّ ليساندر الإسبرطي، تمّ انتخاب سقراط عضوًا في مجلس الشيوخ. ولكن بعد مشاهدته الإرهاب الذي كان يُمارس على المواطنين، قرَّر الاستقالة من منصبه.

اتّهم مواطنو أثينا سقراط بالكفر لعدم احترامه الآلهة والدّين، زاعمين أنَّه يحثّ الشباب على الرذيلة، واقتادوه إلى المحكمة. دافع عن نفسه ليُظهر براءته، ولكن بالرغم من براعته في جدالهم حُكِم عليه بالإعدام بتجرُّع السّم.

رفض التخلّي عن أفكاره، وكان هذا الشرط الأساسيّ كي ينجو من الإعدام، ولم يقبل مساعدة أصدقائه للهرب من السجن اِعتقادًا منه أنَّها تصرّفات مذلَّة وغير شريفة بالنسبة إليه، هو الذي كرّس حياته للحقّ والخير والعدل. أُعدم بتجرّع سمّ الشوكران المستخرج من شوك سامٍّ يحمل هذا الاسم.

أدرج أفلاطون، في كتابه: الدفاع عن سقراط، الحوار الذي حصل خلال محاكمة الفيلسوف وهذا بعض ممَّا أكدّه فيه سقراط:

«لا شيء يشغلني إلَّا أن أُقنعكم جميعًا، كبارًا وصغارًا، بأن لا تهتموا بأجسادكم وأموالكم أكثر من الاهتمام بإيصال نفوسكم للكمال، وأن أقول لكم إنَّ الفضيلة لا تأتي من الثراء، بل بالعكس الفضيلة تأتي بالمال أو بأي شيء آخر مفيد للإنسان، سواء كان في حياته العامّة أو الخاصّة، وإن كنت بهذا أُفسد الشبيبة، فليكن! أمَّا إذا قال أحدكم إنّي أقول شيئًا مختلفًا عن هذا، فإنَّه كاذب.»

«إنَّ هذا الرجل (ميليتوس) يطلب أن يكون الموت قصاصي. وأنا أيها الأثينيّون، ماذا عساي أن أقترح كقصاصٍ بديل؟ قصاصي هو ما أستحقه! أليس هذا واضحًا؟ وما الذي استحقه؟ ماذا أستحق من عقابٍ أو من ثوابٍ؟ أنا من اخترت حياة لا تعرف الراحة، مُهْمِلًا ما يهتمّ به معظم الناس-منثروةٍ، صفقاتٍ، وظائف وقياداتٍ حربيّةٍ وسياسيّة عدا عن شغل المنابر والتحالفات والتحزّبات السياسيّة، أنا أعتبر نفسي في الحقيقة رجلًا أفضل من أن أسلك طريقًا كذاك دون أن أفقد نفسي- من أجل ذلك لم أسلك طريقًا ما كان يمكن أن يعود عليكم وعليّ بالنفع! من أجل ذلك، خدمت كلًّا منكم بشخصه أعظم الخدمات، مُقْنِعًا بهذه الطريقة كلّ فردٍ منكم بألَّا يعتني بشؤونه الماديَّة أكثر من العناية بنفسه، من أجل أن يصبح أفضل على المستوى الأخلاقيّ والعقليّ، وألَّا يُعْنَى بأمور الشعب قَدْرَ العناية بالشعب ذاته، سالكًا الطريق الذي اعْتَمَدَهُ في الأمور الأخرى.

بماذا أستحقّ أن أجازى لتصرفي على هذاالنهج؟ أن أجازى بالخير، أيّها الأثينيّون، إن كان القصاص حقًّا بحسب الاستحقاق، فهذا الخير يجب أن يكون مناسبًا للرجل الذي أنا أكونه. فماذا يمكن إذن أن يكون مناسبًا لرجل فقيرٍ خدومٍ يقوم بأفضل الخدمات ومحتاجٍ إلى التمتع بأوقات الفراغ بدل أن يعظكم بما يفيدكم أيُّها الأثينيّون، ليس هناك أنسب من أن يُكَرَّم هذا الرجل في مجلس البروتانيون[٢]، وهو أحقّ بذلك من أيّ واحد منكم، ممن فازوا في الألعاب الأولمبيَّة على حصان أو على عربة يجرّها جوادان أو أربعة! فهو يجعلكم سعداء في الظاهر، أمَّا أنا، فأجعلكم سعداء فعلًا، وهو لا يحتاج إلى إكرام، أمَّا أنا فأحتاج إليه، فإذا كان يجب عليّ إذن أن أحدّد الجزاء بحسب الاستحقاق مراعيًا العدل بذلك، فإنَّ ما أحدّده هو أن أُكَرَّم في البروتانيون.»

«فما أُدنت افتقارًا إلى خِطَبٍ، بل افتقارًا إلى الشجاعة، ولأنَّني لم أُرِد أن أتحدّث أمامكم على النحو الذي سَيُمْتِعُكُم سماعه أعظم امتاع، ألا وهو أنَّ سقراط يتحسَّر أو يئن أو يفعل أو يقول أشياء كثيرة لا أعتبرها أنا تليق بي، أشياء تعوّدتم أنتم على سماعها من المتَّهمين الآخرين.»

«ولكن ها قد حانت ساعة الرحيل، لأموت أنا ولتحيوا أنتم! من منّا سيذهب إلى مصير أفضل؟ الأمر واضح أمام الجميع، باستثناء الإله.»

أمَّا سقراط روايتي فهو فلاحٌ.

---

٢ – البروتانيون هو مجلس مدنيّ ودينيّ ذو أهمية كبيرة؛ كلّ شيء يشير إلى أن في اقتراحه لهذا الجزاء، كان سقراط يريد مواجهة القضاة.

توماس مور

ولد السير توماس مور[٣] في ٧ شباط ١٤٧٨، وتوفي في ٦ تموز ١٥٣٥، في لندن، إنكلترا.

تخرّج في القانون. عمل في وظائف مختلفة، فكان محاميًّا ودبلوماسيًّا وكاتبًا ونائبًا لعُمدة مدينة لندن. التحق بمجلس الملك هنري الثامن، في عام ١٥١٧.

هو ابن للقاضي جون مور، الذي كان قد نصَّبه إدوار الرابع فارسًا. والدته آغنس غرونجر. تزوّج من جاين كولت وأنجب منها مارغريت وإليزابت وسيسيلي وجون. بعد وفاة جاين، تزوّج من أليس مدلتون. يوصف كرجلٍ طيّب المزاج، كان يفضّل البقاء في البيت مكرِّسًا حياته لعائلته، وقد شجّع جميع أبنائه على تعلّم اللاتينيّة واليونانيّة والرياضيّات والمنطق والطبّ وعلم الفلك واللاهوت، وقيل إنَّه مارس الحياة الجامعيّة لفترة وجيزة.

ألّف كتاب يوطوبيا، في سنة ١٥١٦، وهو من أبرز أعماله. في الجزء الأوّل من هذا الكتاب يقدّم تأمّلًا في الحالة السياسيّة والاجتماعيّة في إنكلترا في أوائل القرن السادس عشر، عندما بدأ عصر الاستبدادب تعبيد طريقه، حيث بدأت السلطة بخصخصة أراضٍ كانت تُستعمَل للعموم. أمّا في الجزء الثاني، فيروي رافايل هيتلوديو أنَّه في إحدى رحلات الاستكشاف التي قام بها مع بعثة أمريكو فسبوتشيو، تعرّف على الجزيرة التي أطلق اسمها

٣ - مور أو مورُس، كما وضع في اللاتينيَّة.

على هذا الكتاب. في تلك المملكة الخياليّة-واسم عاصمتها أماوروتو، وهي كلمة من أصل يونانيّ ومعناها «مدينة تتلاشى»- يعيش السكان على نحو مثاليّ: لا توجد أملاك خاصّة حيث يشترك الجميع في الظروف المعيشيّة ذاتها؛ لا يوجد تقسيم للعمل، حيث يتناوب الناس على الزراعة والحِرَف اليدويّة، وهذا يدوم ستّ ساعات فقط في اليوم. أمّا الكهنة والأدباء فلهم منزلة خاصّة محفوظة؛ هناك معتقدات مختلفة يحترمها الجميع؛ لا جشع في المال ويتبع السكان عادات صحيّة صارمة.

يُعتبر كتاب يوطيوبيا مَعْلَمًا بارزًا في تاريخ الفلسفة، معارضًا المفاهيم الواقعيَّة السياسيَّة. وربما كان مور في عمله هذا يريد من المواطنين في ذلك الوقت ألاّ يقبلوا بحالات الطغيان وأن يتجرَّؤوا على تخيّل شكل آخر من أشكال التعايش البشريّ.

كان مور يقرأ كتابات القديس أوغسطينوس، بناء على توصية مرشده الروحيّ، جون كولين، وكان يمارس حياة دينيّة صارمة.

ألّف كتابًا عن الملك ريتشارد الثالث باللغتين اللاتينيّة والإنكليزيّة. من المحتمل أن يكون شكسبير قد اعتمد عليه فيما بعد، عندما ألّف مسرحيّته التي تحمل اسم ذلك الملك. كان صديقًا قريبًا لإراسموس روتردام اليوطوبي الآخر، والذي أهداه كتاب: مديح الحَمَق.

قام مور بدورٍ مهمٍّ في القصّة الأكثر إثارة للجدل في عهد هنري الثالث. لم يتمكّن رئيس أساقفة يورك: توماس ولسي، من إلغاء زواج الملك من كاثرين أراغون، فأقاله من منصبه وعيَّن مور مستشارًا مكانه، وكان يعمل في خدمة رئيس الدولة ومن المقرّبين منه. لكن وبصفته كاثوليكيّ متحمّس ومُؤيّد للكرسيّ البابويّ الرومانيّ تنازل عن المنصب كي لا يخون مبادئه لأنَّ البابا وقف ضدّ إلغاء الزواج. فيما بعد، ولأنَّه كان يبغي حلّ مسألة إلغاء الزواج من كاثرين كي يتمكّن من الزواج من آنا-بولين، قطع هنري الثامن العلاقات مع روما وعيّن نفسه رئيسًا للكنيسة في إنكلترا، وهكذا استقلّت

الكنيسة الأنغليكانيّة عن روما.

بعد موافقة البرلمان الإنكليزيّ على قانون الخلافة، طُلِب من مور أن يُقسم معترفًا بشرعيّة أيّ ابن أو ابنة ينجبه أو ينجبها هنري الثامن من آنا–بولين، إضافة إلى مواضيع أخرى. يبدو أن ذلك الطلب كان استثنائيًّا لأنّ مور لم يكن حينها يشغل أيّ وظيفة رسميّة. ولكن بما أنّه رفض ذلك، دون الإدلاء بالأسباب التي حملته على ذلك، اقتيد إلى برج لندن للمحاكمة.

حاكموه وقطعوا هامته وعرضوها لمدّة شهر، قبل أن تسترجعها ابنته مارغريت.

لكونه مثالًا للإخلاص للكنيسة الكاثوليكيَّة ولأنّه عاش حياة مستقيمة، اعترفت به الكنيسة شهيدًا، وتمّ إعلانه طوباويًّا، ثمَّ قديسًا في عهد البابا بيوس الحادي عشر. أمّا عيده فيقع في ٢٢ من حزيران.

في عام ٢٠٠٠، أعلنه البابا يُوحنا بولس الثاني شفيعًا للسياسيّين.

ما يلي مقاطع من كتاب يوطوبيا، تحفة توماس مور:

«ثمّة عَملٌ يقوم به كلّ الناس، رجالًا ونساءً، دون استثناء: الزراعة ويتعلّمها الجميع في طفولتهم، عن طريق التلقين النظريّ في المدرسة من ناحية، وعن طريق الرحلات الزراعيّة التي يقومون بها إلى البلدات المجاورة للترفيه من ناحية أخرى. وهناك يقومون بمشاهدة العمل وبالمشاركة به أيضًا بطريقةٍ فعليّةٍ فتكون فرصةٌ سانحةٌ للتدريب البدنيّ أيضًا. إلى جانب الزراعة، التي يشترك بها الجميع كما ذكرت، يتعلّم كلّ منهم حرفةً معيّنةً له: كنسج الصوف والكتّان أو البناء أو النجارة أو صناعة المعادن. وهي الحرف الأساسيّة.»

«في هذا البلد لا يقدّرون الذهب والفضة أكثر من قدرهما الطبيعيّ. فقيمة هذين المعدنين في ذلك البلد أقلّ من قيمة الحديد الذي يحتاج إليه الانسان كحاجته للماء وللنار. أمّا الذهب والفضّة فلم تمنحهما الطبيعة

تلك الفائدة التي لا يمكننا الاستغناء عنها، ما لم تكن حماقة الإنسان قد جعلت منهما أشياء قيّمة لندرتهما.»

«أتمنى من كلّ قلبي لو كان في كلّ مكان بلاد كهذه التي انتهيت من وصفها الآن. لأنّ منها قد اجْتُثّت جميع جراثيم الطموح والانشقاق الحزبيّ، مع غيرها من أشكال الإدمان.»

«منذ ذلك الحين، لا تخاف الدولة الخلافات المدنيّة التي تقضي على السلطة والثروة في كثيرٍ من المدن. فباتحاد المواطنين في الداخل، وبتمييزهم ورصانتهم يدافعون عن الجمهوريّة ضدّ المخاطر من الخارج. إنّ حسد جميع الممالك القريبة ستكون عاجزة عن هزّ الإمبراطوريّة وزعزعتها؛ فلقد حاولوا عدّة مرّات، وفي كلّ مرة شاهدوا مشاريعهم تنهار.»

وتوماس مور في روايتي معلّم.

لا شيء يلهمني أكثر خلال الحديث حول أمور ما، أكثر من تعمّدي على زرع بذور الشكّ!

الرسالة الأولى

توماس العزيز،

لقد سمحت لنفسي بكتابة هذه الرسالة لأنِّي قرأت النصوص التي تلطفت وأرسلتها لي، وأعترف لك أنّي قرأتها مرَّات عدَّة.

إنَّ حياتك مليئة بالتجارب المدهشة، وهذا ما أعتقده، لأنّ كلّ ما تكتبه هو نتيجة تجاربك الشخصيّة وأعتقد أيضًا أنّ الابداع ليس مادّةً منفصلةً عن الحياة، حتى في الروايات فإنّ الكاتب يعتمد على انطباعات يستعيرها من حاساته وأنا أحبّذ إطلاق عنان انطباعاتي، أحبّ مثلًا انتظار مدّة الحمل، دون انقطاع؛ فالمواعيد لا تستعبدني. أمّا الوقت، يا للوقت! فأنا اتحدّث معه ونتوصّل دائمًا إلى اتفاق.

عليّ أن أعترف أنَّ هذا النوع من النصوص هو شيء جديد بالنسبة إليّ والحقيقة أنّي لم أكتب رسائل إلى أحدٍ سابقًا، فأنا من الذين يحبّذون الكلمات المنطوقة والمخمَّنة وهذه الأخيرة هي الأفضل لأنَّها لا تجرح ولا تُعرّض أحدًا للخطر ولا يُشكّ بها!

كما يبدو، لدينا أشياء قليلة هنا مع أنّ الطبيعة خلّابة ولا نمّل من التأمل فيها أبدًا. يكفي أن تكون قريبًا ولست على عجل كي تندهش أمامها أجمل اندهاش. نعم، هكذا بالضبط. نبتةٌ ما، زهرةٌ ما، مجرد متابعة تطورّها اليوميّ يستأهل أن نستيقظ. وتقف هناك أفواج من الطيور والحشرات أمام الجمال والملذات التي توفرها تلك النبتة. زهرة لا غير تشغل الناس أيامًا عديدةً. تتراكم التجارب: عندنا هنا أزهار وأشجار

وأنهار وحيوانات من كلّ حجم ولون وعندنا المياه، مياه نظيفة وعذبة وهنا التأمل بها.

أملك هذا الانطباع –وقد أكون مخطئًا ولا أريد أن أبدو سيّد حقيقة مطلقة– بأنّكم لا تتنبّهون كثيرًا للغنى الذي تملكونه. وقد فوجئت قليلًا بما قرأت من اعترافاتك. إعتراف جريء ليس كرسالة بين صديقين، تكمن سرًّا لا يتعداهما. في الواقع، إنّي أنتظر وصول رسالة منك تخطّها لي فحسب. وأرجو ألاّ تُسيء فهمي، فأنا أفضّل ذلك على نصوص عامّة. إنّي أعاملك معاملة صديقٍ لصديقه. رغم أنَّ تجاربك الصّعبة في السياسة قد توهمك أنّ الصداقة غير موجودة.

في يوم من الأيام، وأثناء حوار متواضع وصريح مع والد جديد، وهذا أجمل حوار –قلت له إنَّه من الضروريّ أن يشرح لابنه أنّ الانسان خيّر. فأجاب الأب، بقليل من الجهل، إنّ ذلك سيدلّ على عدم ارتباط بين الخطاب والممارسة، لأنَّ ما نراه بعيداً جدًّا عن الخير، وكان متشدِّدًا. لا أعلم ما هي التجارب التي مرّ بها، وربما قد عانى منها، لست أدري، لأنَّه لم يتكلّم كثيرًا عن حياته. ولكنّه تكلّم عن غياب الحياة.

إنّي أومن أنَّ أوّل خطوةٍ نحو فهم الحياة هي التكلّم عنها. وطبعًا يجب أن يكون هذا بحكمةٍ فثمّة أناس لا يملكون حاسّة السمع، ومن يعاني من هذا يسمع ما يرغب، أو يفسّر ما يسمع بدون تصفية وهذا أسوأ. عدا عن ذلك، لا يكتفي باضطرابه الخاص فيُعلِّم ما لا يَعْلم. إنّ التكلّم عن حياة الناس خطير دائمًا. لا يمكن أن تعرف بُحْرَةً فقط لأنّك سمعت عنها أو لأنَّك زرتها مرَّة أو مرّتين، فحتى أولئك الذين يتردّدون بتكرارٍ إلى المكان عينه لا أحد يضمن لهم عدم اكتشاف أمور مدهشة جديدة.

إنّ البحرة نابِضة بالحياة. ثمّة ضيوفٌ يَطردون السكّان. وعندما يأتي أحد لزيارتها ثانية، ينتبّه أنَّ الغزاة احتلّوا المكان، إذا كان هذا هو المقصود. ولكن لا شكّ أنّ ثمّة مفاهيم خاطئة. كيف تتعرّف على حقيقة السكان

الأصليّين؟ إنّ الغزاة، طبعًا، لن يقدّموا أنفسهم كغزاةٍ، وإن كان هناك أيّ وهمٍ في أنّ أحد سكان المكان من الكبار بالسنّ يمكنه أن يقول مَنْ الأجدر بالمكان فسرعان ما يتبدّد، لأنّ المسنين يفتقدون إلى اليقين أيضًا ويتعرّضون للأخطاء الشائعة الناتجة عن أوّل انطباع ومن الثاني ومن كلّ الانطباعات! مع كلّ هذه الحوادث المؤسفة، نحن بحاجة إلى معرفة كيفيّة التحدّث، وعمّا نتحدّث. أنا لست من أولئك الذين يمنحون الحقّ إلى تقسيم العالم بين الخير والشرّ. أعتقد أنّ هذا لا يساهم إلى فهم الطبيعة البشريّة. هذه البساطة متناقضة مع التعقيد الذي نعاني منه. حسن أو سيّء؟ هذا فقط؟ ومن الذي يقرّر؟

في بعض الأحيان، أختلس النظر إلى هرّ يعيش هنا منذ زمن. لا أعرف ما عمره ولكنّي لا أعتقد أنّه صغير السنّ، ولكن بالتأكيد ليس كبيرًا جدًّا. أقول هذا لأنَّ حركاته، عندما يروق له، تكون سريعة. ولو كان كبيرًا، ربما كانقد يُآثر الخرخرة في زاوية هادئة. لا يحتاج إلى أكل ولا حتى إلى رفقة، مع أنّي أعتقد أنّه يفضّل الوحدة على الأصوات العالية حتى ولو كانت قليلة. لا يشرب الماء بنهم، وعندما يشربه يبدو كأنّه يتفحّصه. أشعر أنّه يأخذ وقته في تفحّصه نقطةً نقطةً، أو أنَّه يرمي بنظره إلى مكان ما، معناه غير موجود هنا، ولهذا لن ننتبه إلى أنّه ينظر إليه بعمق، وهذا ليس سهلًا لأنّنا عندما ننظر إلى داخلنا، نرى ما لا نحبّه. إنَّه ليس صغير السنّ. وأعرف هذا لأنّي اعتدت رؤيته منذ مدّة طويلة. وهو يحتفظ بمسافة بيني وبينه وقد يكون هذا سبب قدرتنا على التعايش معًا كلّ هذا الوقت. أنا لا أزعجه وهو لا يعكّر صفو هدوئي. إنّنا قادران حقيقة على البقاء معًا لمدَّة طويلة دون أن نحدث أيّ صوت. فالصمت برفقة أحد ما هو المتعة دائمًا، إلى حدٍّ ما. أقول: إلى حدٍّ ما، لأنَّ ثمّة حالات يكون فيها الضجيج الداخليّ مُقْلِقًا لدرجةٍ يصبح فيها الصمت الخارجيّ بلا معنى!

أحبّ المشي. نعمةٌ وهبني إيّاها الخالق. المشي. هو شيء رائع رغم

بساطته. أمشي كلّ يوم. وكلّ يوم أقرّر إلى أين أريد أن أتوجّه. أختار. وأسمح لنفسي بالتكلّم مع من يمشي معي أو إن كنت لوحدي أتحدّث مع نفسي. أتحدّث عن الماضي، أحبّ الذكريات. وهنا يكمن سرٌّ عظيمٌ: سرّ الذكريات. فلقد حصل كلّ شيء تقريبًا من قبل بطريقة أخرى، ولكنّه حصل. وعندما نتذكّر، نستأنف التعلّم. إنَّ الإصرار على الأخطاء عينها ينتج عن عدم التذكّر. إنّ للأخطاء قدرة تحملنا على الإدمان. التذكّر هو النظر عن بعد إلى تاريخنا وتاريخ الآخرين. والهرّ الذي يعيش هنا يعطيني هذا الانطباع بأنَّه على علم بكلّ هذه الأشياء. ربّما من الطريقة التي ينظر بها إليّ أو من طريقته في الجلوس. لا أعرف. ثمّة أمورٌ كثيرةٌ تولد من انطباع ما، ولا نقدر على تفسيرها؛ ولذلك يا صديقي، يجب أن ندعو هذه السيّدة: الرَيْبة، كي تتناول الطعام معنا منذ أوّل وجبة وحتى آخر وجبة: العشاء. فهي التي تشجّعنا وفي الوقت عينه تبعث فينا الحيرة. هي التي تختلس النظر إلينا بصبر وتمتّعنا هي أيضًا إذا كان عندنا استعداد للاستمتاع. إنَّها رفيقة حسنة. أسمّي هذه الريبة بالسيّدة، ليس لأنَّها كبيرة في العمر، فهي بالتأكيد صغيرة لكنّها تستحقّ أن تُعامَل بكلّ احترام. سيّدة هي، لأنَّ سيادتها أساسيّة لكلّ من أراد أن يتعلَّم. لا شيء يلهمني أكثر خلال الحديث حول أمور ما أكثر من تعمّدي على زرع بذور الشكّ!

أنا فلاّحٌ، رجل بذورٍ وترابٍ. ومنهم أحاول أن أفهم، لذلك أشكّ من عدم وجوب النظر إلى البعيد من أجل استيعاب أكبر، من عدم لزوم التذكّر كي نقلّل من أخطائنا والعيش مع القطط ومع الناس. من أناس مهمّين مثلك، أيها الأستاذ المحترم.

مع مودّتي
سقراط

يُدرَكُ الصدق في أوقات لا شهود فيها.
القيام بما هو صحيح فقط لأنَّنا نخاف من
العواقب هو طريقة هشَّة للصلاح.

الرسالة الثانية

العزيز سقراط،

كان استلام رسالتك مفاجأةً سعيدة لي. لم يكن لقاؤنا منتظرًا. وكغيره من اللقاءات غير المنتظرة كان بوسعه أن ينتهي كما بدأ. في الواقع هذا سراط الحياة. لقاءات ووداعات. وصول ورحيل. إزدواجيَّة. فأنت قلت إنَّك لا تحبّ ازدواجيَّة الخير والشرّ وقد تكون على صواب ولكن يمكنني أن أضمن لك أنَّني واجهت في حياتي كثيرين من الأشرار. أناس لا يملكون كِلا الجانبين. أناس سيّئون، لا أكثر ولا أقل. أناس لا فائدة من خِصالهم، أناس يتظاهرون بالخير ويجذبونك بابتسامة زائفة ويسخرون من الآخرين.

يا صديقي، وقد سمحتَ لي بأن أدعوك هكذا: يا صديقي، أمَّا بعد، فإنَّ تجاربي قد تؤهّلني للإدلاء ببعض البيانات التي ما كنت لأقولها لو لم أعاني من المؤامرات الحقيرة في السلطة. أنا مُعَلّم ودخلت إلى السياسة ونجحت نوعًا ما. ووصلت إلى حيث ما كنتُ أتصوّر الوصول، وقد يكون هذا ما خيّب أملي في طبيعة الإنسان إلى درجة كبيرة. فالسعي إلى السلطة يشوّه العلاقات ونصبح جميعنا قمامة يجب التخلّص منها. ولقد شاهدت أشياء مؤسفة من أناس كنت أعتقد أنَّهم صالحين.

لست أتكلّم فقط على السياسيّين. أتكلّم أيضًا على الناس العاديّين. هل تريد مثلًا بسيطًا عمّا أقوله؟ مرّة، اصطدمت سيَّارة بسيارتي. مجرَّد سيرها إلى الخلف وبدون انتباه من سائقها حدث ضرر. نزلت من السيارة، بكلّ لطف واتجهت نحو السائق الذي اعتذر منّي خاشيًا أن يظهر منّي أيّ ردّة

فعل عنيفة، ولكن بما أنَّ تصرّفي كان لطيفًا، والاصطدام كان قد حصل، لم يشعر بأيّ حرج عندما أكّد للشرطة بأنّي أنا المذنب وبأنّه لم يقدها إلى الخلف، وطلب من الشرطيّ أن يتحقّق بنفسه من ذلك متفحّصًا ناقل الحركة الذي ما زال في الموضع ذاته عندما اصطدمتُ به نتيجة عدم انتباهي! شعرت بأنّني أتوهّم، فالكلام الذي قاله كان كذبًا بكذبٍ، ليس فقط عمّا حدث ولكن أيضًا عمّا أقرَّ به، قبل دقائق من وصول الشرطة. في البدء، فقدت السيطرة على نفسي، وكان الشرطيّ ينظر إليَّ بِرِيبَةٍ كأنّ تصرّفي ما كان إلّا ليخفي ذنبًا؛ وهو المسيء يقترح عليّ أن اعترف بخطأ ولفّق أمورًا كاذبة. أيّ حقيقة؟! أخذت أصرخ وأرفع صوتي عاليًا فأعلى. من شدَّة احتدادي هدّدته، عندها حذّرني الشرطيّ أنّ عدا عن دفع تعويض ماديّ بسبب ضرر السيارة عليّ أن أدفع أيضًا كمّية باهظة كتعويضٍ على الضرر المعنويِّ الذي ألحقته به. ضرر معنويّ؟! يا إلهي، انظروا! مكافأةٌ للمنافق! هل نعوّض على دنيء جديد؟ هكذا يا صديقي، لذت إلى الصمت وأنا أعاني من طبيعة البشر. دفعت التعويضات. لا ذنب للشرطيّ. لا يوجد أدلَّة. لم يكن هناك شهودُ عيانٍ عندما وقع الحادث. كنَّا أنا وهو، لا غير.

يُدرَكُ الصدق في أوقات لا شهود فيها. القيام بما هو صحيح فقط لأنَّنا نخاف من العواقب هو طريقة هشَّة للصلاح. كم من أناس يتباهون بصلاحهم لأنّه لم يشاهدهم أحد على انزلاقاتهم الأخلاقيَّة، فقد رأيت هذا يحدث في السياسة وفي الكنائس وفي عالم الأعمال. الظاهر أنّه يحلُّ فعل كلّ شيء، أيّ شيء، بشرط ألّا يراك أحد. وفي حال انتشر صيت أيّ عملٍ غير مرغوبٍ به بين الناس، فالعاقبة هي تدمير فاعله دون رحمة، حتى ولو ما فعله من قبحٍ يقوم به الكثيرون من الناس. ما دام الشنيع مستورًا وغير مكشوفٍ سيمضون سالمين وسيدمّرون القيم الأخلاقيّة. أمَّا الضحايا، ليس بسبب ما فعلوه بل بسبب انتشار خبر ما فعلوه، هؤلاء

سيصلحون كمثلٍ وكدرسٍ. تقع على المؤسّسة مسؤوليَّة إصلاح الأمور بصرامة.

يا للنفاق، يا عزيزي سقراط، وما أفجرَ الظلم! وكم من مَقْعَدٍ مضمونٍ في كلّ مجالات السلطة يشغله الكذب؛ لا يمكنني أن أتواطأ مع هذا. خطابات وخطابات أكثر... تحيُّزات. إعلان أخطاء الآخرين للناس. ولا شيء إلّا ذلك. انقطاع الاقتران بين القول والعمل. انفصال بين الحكم والتعايش مع أخطاء الآخرين خلف الستائر.

لا أريد ان أبدو متشائمًا ولكن قم بتحليل بسيطٍ للمؤسّسات التي تعرفها. راقب بتمهّلٍ تصرّفَ من يقودها أو يديرها. حاول أن تستمع إلى ما هو خلف الخطب. حاول أن ترى ما هو خلف الصورة، لا يبقى إلّا القليل، يا صديقي. وفضلًا على أنَّهم متمرّسون جميعًا على مراقبة سقوط أحدهم وحتى على تشجيعه كابن يشاهد موت الأب ويتحمّس للميراث الذي سيقوم بإدارته دون مبرّرات. كمصابٍ في حادثٍ ينجو بحياته، هو فقط. يخرج منتصرًا من بين كلّ الذين ماتوا. يبدو أنّ كلَّ مشاعر الرحمة تمرّ بعيدةً عنه. وهكذا السلطة فإنَّها تُظهر أبشع ما يكمن داخل الإنسان. ولذلك كلَّما حاولت الرجوع إلى العيش بعالم الخيال أخفق. فالعيش يبرهن لنا أنّ الأحلام جميلة عندما نكون نائمين وثمّة أناس كثر يحبّذون العيش هكذا: نائمين. يكفي أن نستفيق، يكفي الجهد البسيط لفتح أعيننا -لست متأكّدًا أنّه جهد بسيط- كي يختفي الحلم في مكان ما.

يجب أن تكرّر مجيئك إلى المدينة. إذا كنت تريد أن تتعرّف على طبيعة الانسان، يجب أن تزور المدينة. يمكنني أن أرافقك. لا أريد أن تتأثّر بخيبات أملي. اكتشف ذلك بنفسك. إستنتجْ بنفسك. ولكن لا تحاول تفسير العالم دون أن تكون بداخله. فالتفاصيل تُرى من الداخل، وعن قرب يمكنك أن تدرك التبرّج فمن البعيد لا ترى النتوءات ولا العيوب. التبرج مظلّ، يا صديقي.

منذ وقت طويل، تعرّفت على نموذجٍ مثاليٍّ للأسرة. زوجان يعيشان في انسجام جميل. لهما ثلاثة أبناء مطيعون ومهذّبون. التقيت بهم بضع مرّات. أُعْجِبْتُ بمواقف ذلك الرجل الشهم، فقد كان يسعى لتحقيق أمنيات حبيبته قبل أمنياته هو، وأولاده كانوا معنى حياته. رجلٌ حياته في عمله وأسرته، ولا شيء آخر. في بعض حفلات العشاء سمعت منه آراء غير مُستحسنةٍ عن معارف مشتركين. أخلاقيًّا كان رجلًا صارمًا. وأزعجني اغتيابه. ولكنّي أعترف ما كنتُ أملك الاستعداد الكافي لأخالفه في الرأي. كانت زوجته دائمًا إلى جانبه والأولاد لا يتكلّمون إلّا قليلًا. حسنًا، وقد حدث أن سافرنا مرّةً معًا وعندها سقط القناع. أربعة أيام لا غير كانت كافية لتتحقّق من الجحيم الذي كانت تعيشه تلك الأسرة المثاليّة.

يا لجسارة ذلك الرجل وهو يدعوني للتعرّف على نساء، بعد كلّ تلك الانتقادات التي قام بها ضدّ الآخرين! يا لقدرته على الشرب ولعب القمار. كانت المتعة بالنسبة إليه أوّلًا وقبل كلّ شيء آخر. بينما كانت زوجته تنتظره في البيت، وأولاده يتشاجرون. يزول التبرّج كاشفًا عن وجهٍ مليءٍ بالخلل. فضلًا عن الشجار الدائم بينهما. حاولت أن أتدخّل عندما رأيته يعتدي بالضرب على زوجته! وماذا عمّا كان يقوله قبلًا؟! وماذا عن تعليقاته على الرجال المتهتِّكين وعلى النساء الضعيفات!؟ كلامه مجرّد خطاب. غادرت وأنا أشعر بالقرف. لم أبقَ معهم إلى آخر الرحلة، نهضت في ليلة وكتبت لهم معتذرًا بسبب ضرورة عودتي لحدث ما، فشعرت بالراحة. قد أكون غير عادلٍ لما سأقوله، لكنّي لم أر قطّ رجلًا أخلاقيًّا صارمًا يكون سلوكه متطابقًا مع ما يقوله.

أرجو الاّ تبالي بخيبة أملي في الإنسان ولكن بالحري اكترث فقط بما تجده معقولًا. لا أريد أن أكون من سبّب لأحد بالتخلّي عن حلمه. لاسيّما أنِّي كنت حتى الأمس من الحالمين!

يا ليتني أعيش حيث تعيش، ليت الأرض تكون شريكتي. لا التراب يكذب ولا الحيوانات تكذب، ولكلّ شيء سبب في وجوده. أنا بعيدٌ. وعندما يقولون إنَّ الرجال خطيرون كالذئاب، أعترض. الذئاب ذئاب، ونحن نعرف هذا، وهم لا يخفون هوِّيَّتهم، لذلك ليس من الصعب أن نحذر منهم. أمَّا الناس يا صديقي، نعم، فهؤلاء هم المريعون! كيف نعلم ماذا يقصدون، كيف نواجه الخطاب مع الفكر؟ فمن الواضح أنّ بعض الناس يخطئون ويبدِّلون في آرائهم، ولكن هناك الكثيرين الذين يفكرّون بشيء ويقولون شيئًا آخرًا. وهذا ما يؤسفني في السياسة وفي الحياة.

كما ذكرت أنت في رسالتك، لا أريد أن أبدو سيّد الحقيقة. هناك عدَّة طرق لرؤية الأشياء. فلننتظر إذن. بدون تسرّع، ربما نغيّر رأينا حول بعض تلك الحقائق التي تبدو اليوم مطلقة. وقد تكون مؤقّتة أو قد لا تكون حقيقةً بالمطلق. من يدري؟

مع مودتي.

مور

وُلدت الحقيقة معنا، ولسوء الحظّ، غالبًا ما نخاطر بفقدان حياة بأكملها دون أن ندرك ذلك

الرسالة الثالثة

صديقي مور،

أؤكّد لك أنِّي لا أعتبرك رجلًا متشائمًا أو انهزاميًّا، بل أنت رجلٌ تعلّم من الحياة أكثر مني وأكتسب أنا منه الخبرة، فنادرًا ما تركت زاويتي هذه. هنا، أنا أعيش بين أناس بسطاء، هنا المنازعات صغيرة، لكنها موجودة. أعتقد أنَّ هذا هو حال كلّ مكان. لا أريد أن أبدو ساذجًا، ولكنّي مؤمن دؤوب بطبيعة البشريّة. أعرف أنَّ هناك سقوط، وأن هناك جرائم ضدّ العدالة وضدّ الخير، ولكننا لم نُصنع من هذه الطينة، وأنا أكيد من هذا.

فكّرت بالحجج التي تؤدّي بك إلى الحطّ من شأن من يطلب السلطة بتفانٍ. وأخذت أتساءل إن لم يكن الإيثار شكلًا من أشكال الأنانية، ولا سيما بين أولئك الذين يحتاجون ليثبتوا لأنفسهم كم هم جيّدون. ولكنّ التظاهر باللطف والكمال لا يساهم أبدًا كي نلتقي مع الجوهر. هكذا نبقى مع التبرج، كما ذكرت أنت. وأسألك: هل يا ترى كلّ تلك السيّئات التي عدَّدتها ترافقنا منذ الولادة؟ هل ذلك السائق الذي خيّب أملك قد وُلد على تلك الحال؟ أو تعلّم ذلك السلوك من شخص آخر؟ أو أنَّه تأثّر بتجارب الحياة فأخذ يسعى خلف وسائل بديلة أقلّ نبلًا لحلّ مشاكله الخاصّة؟ من يدري؟

إنّ الشبيبة هم سبب قلقي. فهم موجودون هنا أيضًا وأنا أعلّمهم على طريقتي. لا أملك خبرتك، ولكنّي أحبّ التحدّث معهم. البعض منهم يتصرّف كسيّد أفكاره المطلق وكأنّ هذا العالم ليس إلّا تفصيلًا

بسيطًا لملاحظاته المتغطرسة. أنا أستمع إليهم وهذه أحسن طريقة، أتركهم يتكلّمون، أدعهم يقعون في تناقض فالكثير منهم يريد الصدام ولكنّي لا أمنحهم هذه المتعة، لأنَّ الصدام يجب أن يُولد من النقاش الحقيقيّ، من الحوار. أنا أستفزّهم، يا صديقي، لا أجيبهم على أيّ شيء تقريبًا، أو بالأحرى فإنِّي أحوّل إجاباتي إلى أسئلة أخرى. فليجد كلّ منهم الحقيقة بنفسه. فهي في داخلنا، ليس ثمّة صائن واحد للحقيقة، فهي جزء من الخلق. ولدت الحقيقة معنا، ولسوء الحظّ، غالبًا ما نخاطر بفقدان حياة بأكملها دون أن ندرك ذلك.

أريد أن أعود إلى قصّة السائق الذي كذّب. فإنّه لم يذهب إلى داخله لمحاورة الحقيقة الموجودة فيه كي يأخذ قراره بعد ذلك، بل تصرف بتقصير وبدون تفكير، فكلّ ما سعى اليه كان التخلّص من مشكلة فخدع الشرطيّ وخدع نفسه. لا أحد يغشّ الآخر ويخرج سالمًا من عمله السيّء. أمَّا عن ذلك الوالد، الرجل الأخلاقيّ الصارم الذي أخبرتني عنه فهو لا يعرف شيئًا عن الحقيقة. فإنَّهم يعيشون على مسار من علمهم والذين هم أنفسهم لم يحاولوا مقابلة الجوهر. فقبل العلم بأيِّ شيء، يجب علينا أن ندرك أنّنا لا نعرف شيئًا. لا شيء. لا شيء على الإطلاق.

كلّنا نسعى إلى شيء ما، لا غير. ونحن بصدد الاجتماع بما استكان فينا.

إذا أدركنا هذا تعلّمنا أكثر، وإذا ما تعلّمنا أدركنا أكثر أنَّنا لا نعلم شيئا، أليس هذا رائع؟ وهذا الذي نحن عليه. الأكثر حكمة يسعى إلى مزيد من الحكمة فيصير أقل تغطرسًا.

تصوّر شخصًا يهاجر من أرضه ويسافر لأوَّل مرّة كي يتعرّف عن كثب على مكان لا يعرف عنه إلَّا ما سمعه أو قرأه. من الممكن أن يكون قبل سفره قد تحدّث أو درس عن ذلك المكان ولكن عندما يصله ويراه عن كثب يدرك أنّ كلّ ما كان يعرفه هو ضئيل جدًا إذا ما قورن بما يراه.

وأكثر من ذلك: عند عودته، سيكون على يقين أنّه ما زال هناك أشياء كثيرة يغفلها وفي كلّ مرّة عندما سيقوم بتلك الرحلة، سيكون قادرًا على تعلّم أشياء جديدة. هذه هي الحياة. إذا انطلقنا نتعلّم. بالطبع علينا أنْ نتخلّص من الخوف ومن الادّعاء. آه يا صديقي بعد قراءة رسالتك أخذت أفكر: ما أصعب العيش مع المدّعين! إنَّهم موجودون في كلّ الأماكن لأنَّهم لا يرتحلون، لا إلى خارج أنفسهم ولا إلى داخلها. لا يحبّون المخاطرات التي يواجهها المسافرون. أفترض أنِّي بعد أن درست عن مكان ما أدركت أنَّ كلّ شيء تعلّمته كان مُضَلِلًا، أو أفترض أنّي قد درست لغة أخرى وعندما حاولت، أثناء رحلة ما التواصل باللغة الجديدة، أدركت أن ما تعلّمته ودرسته لم يضمن لي التواصل الذي كنت أبتغيه. الخوف من الأغلاط، الخوف من أن يعرف الآخرون أن ما أعرفه أقل مما يبدو عليّ أنِّي أعرفه. حسنًا، ولكن لو كنت أدرك أني لا أعلم شيئًا لما كنت خفت من أن يكتشف الآخرون أنِّي لا أعلم شيئًا ولكنت أوّل من سيقول بوضوح إنِّي لا أعلم شيئًا. فلست إلّا رحالّة، فقط، لا غير.

لا أريد أن أقدّم شرحًا نهائيًّا للسلوك غير المناسب لعديد من الذين يديرون مؤسّسات ويقودون أشخاصًا – فهذا ما لا أحبّه. بعد إعادة قراءة رسالتك، أدركت أن نصّك ليس ناتجًا عن تعلّم ثابت فلقد قمتَ بالرحلة إلى الداخل وإلى الخارج ورأيت وجرّبتَ ما يحدث في السّلطة من اختلال، وقابلتَ بين الخِطاب والممارسة، وتعايشتَ مع المنافقين، وياله من تعايش تعيس، ومن رفقة مزعجة! وأسألك: هل كانت هذه حال أولئك الناس قبلًا؟ وهل كلّ ما فعلته السلطة هو الكشف عن ذلك؟ أو أن الناس تحوّلوا عند ممارسة السلطة؟ أعتقد أنّه من الضروريّ أن نتكشف هذا، فإن كانت ميّزاتهم مخبّأة، فإنَّ السلطة لم تفعل شيئًا أكثر من إطلاق الأضواء وإنارة شيء كان قبيحًا في الظلام. أمَّا العكس، فإن كانوا أناسًا صالحين والسلطة أفسدتهم فَلِمَهَمَّتِنَا تحدّ آخر.

أنا لا أعرف ما هو الأصعب: أن نعمل مع احتمال أنَّ السلطة تكشف عن الرجل الذي كان لا يتمتع بأخلاق رفيعة أو العمل مع احتمال أن لا تعايش ممكن بين الأخلاق والسلطة. وهل هذه قاعدة؟

في كلتا الحالتين، يبدو لي، ومن خلال تجاربك، أنَّه نادرًا ما تُمَارس السلطة دون تلوّث أو عدوى. وهل يُمكن البحث في الاستثناءات؟ هذا إذا كانت موجودة! وفي حال وجودها، ألا تكون هي طريقًا لفهم طبيعة السلطة؟ لا أدري يا صديقي! كلّ ما أعرفه أنّنا إذا أردنا السير في هذا السراط، سنستنتج أنَّنا لا نعرف إلَّا القليل أو لا نعرف شيئًا البتَّة. ولكن هذا الاستنتاج الأوّلي قد يكون قادرًا على قيادتنا إلى مكان ما. فإنَّ الاستثناء أقوى ممّا نتصوّر، لأنّ الاستثنائيّين شجعان لم يسمحوا لأنفسهم بالاندفاع من قِبَلِ قوّات غريبة.

أريد أن أعود إلى الشكّ الذي يزعجني. إذا افترضنا أنَّ الناس عندما يتوصلّون إلى السلطة يكونون فاسدين، وإذا درسنا الاستثناءات، يمكننا أن نفهم كيف يُمكن العثور على أشخاص غير فاسدين لممارسة السلطة بكرامة. أمَّا في حال إمكانية الإفساد من قِبَل السلطة، وإذا درسنا الاستثناءات، يمكننا أن نفهم الأسباب التي حملت بعض الشجعان، أمام فساد السلطة، على أن يضلّوا أوفياء لمبادئهم. هل هذا ما سيكون؟ هل هذا مسار ممكن؟ لا أعرف، يا عزيزي مور، ولكن كلّ ما أعرفه هو أنَّنا يجب أن نسير على أقدامنا. لا يمكننا أن ننكر على أنفسنا هذا الحقّ في المضيّ على الأقدام، بغض النظر عن إصابة أقدامنا بالجروح. إنَّ قدميك يا صديقي المفضّل مصابتان بالقروح لكنّهما ما زالتا قادرتان على المشي، لا تسمح للأوجاع بأن تشلّك. فلدينا، أنت وأنا، سويًّا، القدرة على إنقاذ المدينة الفاضلة من الضياع.

وإن كانت اليابسة فاسدة فلنركب البحر باحثين بشجاعة وهمّة عن جزيرة، فالجزيرة هي الاستثناء الذي نحن بحاجة له. ففيها قد تحصل

أقدامنا على أكعاب جديدة للقدرة على المقاومة. وليس قصدي أن نعتبر الجزيرة ملجأ لنا يحمينا من متاعب اليابسة، لا أبدًا. لا بل على العكس يجب على الجزيرة أن تؤمّن لنا رحلة أخرى، الرحلة الداخلية. السفر عبر أنفسنا وعبر ما نجهله وهذه الرحلة ستزوّدنا بما نحتاجه كي نبدأ ثانية رحلتنا إلى اليابسة. فمن الجزيرة نتمكّن من رؤية اليابسة لكن من اليابسة لا يمكننا دائمًا أن نرى الجزيرة.

أرجو ألا أكون قد أتعبتك بكثرة تساؤلاتي ولكن الكتابة لك، يا صديقي العزيز، تساعدني على الكتابة لنفسي، فأنا هنا في هذه الحقول المغلقة، أحتاج إلى بحر وإلى جزيرة... أحتاج إلى نفسي...

المعجب بك،
سقراط

لا أعلم أن تسكن يوطيوبيا، قد لا يسنح
لي عمري باللقاء بها. أعرف أين أسكن أنا.
هنا في رماد البشريّة.

الرسالة الرابعة

سقراط الحبيب،

يرجع بي العمر إلى الوراء عندما أقرأ رسائلك. لا، لا تشعر بالسذاجة، لأنَّك لست ساذجًا، بل على العكس فإنت تملك حكمة من لا يندفع خلف المظاهر. إني أفهم من خلال طرح أسئلة أخرى، إلى مَا ترمي بمحاولتك الوصول إلى أجوبة حول تجاوزات البشر.

تأمّلت كثيراً بما قُلْتَه عن الاستثناء. ومعك كلّ الحقّ، فهناك أسماك كثيرة لا تهتمّ بالسباحة عكس التيار ولكنَّها تقوم بذلك دون العلم بما سيواجهها من مخاطر، أمَّا عن البشر، فنحن نعلم! السباحة عكس التيار قد تعني التوقّف عن العيش، والحياة مليئة بأمثال محزنة كهذه. أن نتذكّر -ألست أنت من قال ذلك؟- أن نتذكّر من تجرأ أن يكون استثناءً. وماذا حصل بعد ذلك؟ هل يمكن للموت أن يكون انتصارًا؟ قد يكون أو لا يكون، لا أدري! كلّ ما أنا أعرفه أنَّه عندما يرحل الاستثنائيون، يستمر غير الصالحين بالقيام بما هو غير صالحٍ، على الأقل كما تراه أعيننا بمنظار الأخلاق.

هناك الكثير من النقاش حول مطلقيَّة الأخلاق أو نسبيّتها، وأيضًا حول مفهوم الحقيقة. يفضّل النسبيّون القول أنَّ الحقيقة غير موجودةٍ، إنّ كلّ شيء يعتمد على النظرة الخارجيَّة بالنسبة إليهم. أعتقد أنَّك تؤمن أنّ الوصول إلى فهم ما هو حقيقة وما هو كذب يكون من خلال النيّة الداخليَّة أكثر منه النظرة الخارجيَّة. وهذه هي الرحلة التي تقترحها. الرحلة

الشاقّة إلى داخل الرحّالة. إني أحبّ الحجج التي تقدّمها يا صديقي. أحبّ فكرة الانتصار على البحر والوصول إلى الجزيرة ومنها النظر نحو القارّة. ولكن دون عجل، فأوّلًا يجب تثبيت التواطؤ مع الجزيرة، وتحضيرها كي تكون مثالًا للسلطة وللحكم وللعلاقة بين كلّ الأحياء. ثم العودة، أو البقاء. من يعلم؟ من يعلم ما هي العودة؟ من يعلم ما هو البقاء؟ لا أعرف إذا كنت أبدو مبهمًا، ولكن هذا ما أراه وهذا ما أشعر به، وقد لا يطابق ما أكتبه أو أقوله، أو أعترف لك به إنّي أبذل كلّ جهدي كي لا أسبّب الإحباط لزملائي الذين لم ينفكّوا عن الإيمان بأنّه من الممكن تغيير اليابسة انطلاقًا من الجزيرة. أعترف أني لا أريد أن أقول للآخرين إنّ الاستثناء لا يملك القوّة لتغيير القاعدة، لأنّ أساس القاعدة أقوى بكثير من أي استثناء. يا عزيزي سقراط، ولست قاصدًا التبرّج ولكنّي أحاول ألا أسبّب العدوى لآخرين بخيبات أملي. أمّا لك، فأنا أفتح قلبي. لقد جرّبت السلطة وتعايشت مع المتملّقين ولكنّي لم أنحلّ، ولا أعتقد أنّ السلطة تُفسد. فالفساد يسبق السلطة، يأتي مع الحياة اليوميّة، أمّا السلطة فتُظهر فقط ما كان مخبئًا ومخفيًا، أو ما كان يحدث ولكن على نطاقٍ بسيط. كمخلوق قبيح كان يقطن الظلام فسلّطت عليه الأضواء فبان قبحه. حريق يشتعل في كهف لا نبات فيه البتة، ونار على جبل يغطّيه نبات، حاضر للدمار. هي النار عينها، ولكن منحوها إمكانيّات أكثر لتشتعل. هكذا أرى الأشياء دون أيّ نيّة من طرفي لحسم الموضوع. فمن تجاربي تلك مع المتملّقين، بدأت ألاحظ أنّ النفاق يحتلّ أماكن واسعة. يتكلّم المنافقون بلا معنى، يَمدحون فقط للتقرب من غرور من يتمركز في السلطة. يا لبؤس هؤلاء المغرورين، ويا لقدرة الغرور على إعمائهم! فإنّهم يؤمنون بالأقاويل التي تُزيّن أكثر المشاعر تفاهةً. هذا ولا شيء إلّا هذا. وهكذا فإنّهم يسيئون إلى أنفسهم لكثرة محبّتهم لبلاط المتملّقين، ولا يُخيّل لهم أنّه عند أوّل علامة لانتقال السلطة سيتمّ نقل الذين كانوا يتملّقونهم

بالأمس. نعم، فلقد شاهدت هذه التجارب ومررت بها. الناس الذين في السلطة يتنقلون ولكن المتملّقين باقون! هل من استثناء؟ ربما، لكنّي لم أتعرّف على أي استثناء. ولكنّي تعرفت على الاحتقار عندما احتقرتُ أمرًا خاطئًا. وتعرفت على التخلّي عندما تخليت عن أصغر احتمال لخيانة الأخلاق التي أؤمن أنّها ليست نسبيّة.

ذات مرة سمعت من سياسيٍ كلامًا جسورًا أنّه من المستحسن تقاسم منافِع السلطة. عندما قال إنّه سوف يتلقّى رشوةً إذا ما تمّ القيام بصَفْقةٍ ضخمةٍ، وأنّه يعتبر نفسه رجلًا أخلاقيًّا وصالحًا بما أنّه يقرّ بذلك. أصرّ على أنّه يجب عليّ أن ألبّي طلبه. وكان هذا صعبًا وفي البدء، رغبت أن أعلّمه، كما يفعل المعلّم فأردت أن أتكلّم معه عن مفهوم الأخلاقيّات، وأنَّ الهدف الأكبر هو الصالح العامّ، تحدّثت عن الرمز المتداول بين المتحضّرين، عن ألّا نفعل للآخرين ما لا نودّ أنَّ يفعلوه لنا. ولكن نيّته كانت خسيسة، فهو لا يهتمّ إلَّا بالانتفاع الشخصيّ، بما سيحصل عليه في حال تمّت الأعمال المشبوهة التي تحدّث عنها. تكلّمتُ بطول الباع، ولكنّي لم أجد آذانًا صاغية. ولكن بشدّة أُجبرت على معاملته بفظاظة وطردته. أعرفُ يا صديقي، أنّي خاطرتُ عندما قمت بذلك لأنّ عرّابيهِ كثيرون ولأنَّ المصالح أقبح ممَّا ندرك.

مرة أخرى، سمحت لنفسي بأن انخدع بخطابٍ مغرٍ، خطاب زعيم كان يعرض أحلامَ عالمٍ أفضل، وكأنّه استثناء. هكذا بالضّبط. وكأنَّها دعوة إلى الجزيرة، إلى عالم ما زال قيد الإنشاء. صدّقت، من سذاجتي، ورحلت. وخلال بداية الرحلة، عندما فكّر هو أنَّه لم يعد بوسعي العودة، كشف عن وجهه الذي غلّظته المصالح القذرة، عينها تلك التي دفعتني إلى مغادرة الميناء، قبل السعي وراء حلم الجزيرة المذكورة. لكن لا الجزيرة كانت موجودة ولا الأحلام ولا الحقيقة. ونزلت من القارب، واثقًا أنِّي أخاطر ولكنّي ما كنت أبدًا لأبقى في زورق الأنذال، وهكذا بقيت لوقتٍ

قصيرٍ في قاربٍ صغيرٍ دون أن أهتدي إلى الجزيرة ودون أيّ مجال للعودة إلى اليابسة.

هذا ما يجري مع الآخرين الذين تسمّيهم أنت الاستثناء، لا نملك القوّة يا صديقي، فللسلطة نظام وهذا النظام مغلق، لا حوار ممكن. أنا لا أخشى الموت. لا أخشى المنفى. ولكنّي أخشى المستقبل، فعندما كنت ما أزال قادرًا على الحلم كنت أتخيَّل مستقبلًا جميلًا للبشريَّة. لا أدري إنْ كانت تلك الأحلام قد ولدت معي أو علّمتني إيَّاها الحياة، كما لا أعرف أين تقع المدينة الفاضلة، ولكنّي أعرف أنَّها ملأت وجودي المتواضع لمدّة من الزمن، ولكن اليوم فإنَّ الواقع القاسي يسكن فيّ. يسكن فيّ ما كان يجب أن يسكن. أمَّا الذي كان يجب أن يسكن فيِّ فليس هو فيّ وربما لن يكون. إيَّاك أن تعتقد أنّ شعلة الأمل ستشعل الحياة فيّ من جديد. إنِّني محكوم، يا صديقي، بالعكس منك وعمّن حولك. أودّ لو كنت واحدًا من هؤلاء الشبان الذين يتحدّثون معك والذين لم يصابوا بجروح الرحلة بعد. لقد أصبتَ فثمّة آلام كثيرة في قدميّ، آلام تصل إلى قلبي وإلى عقلي، فالجرح في القدم ولكن الألم في الدماغ، وهو يشير للقلب القلب كي يُحْبَط! وهكذا بالضبط فعندما يصرّ القلب على الإقدام يذكّره الدماغ بالجروح التي لم تبرأ بعد.

أعرف رجلًا ترك زوجته وأبدلها بامرأة أصغر منها وأغنى. خسر والدها كلّ أمواله ورزقه في مشروعٍ محفوفٍ بالخطر، والدتها تعاني من داء لا دواء له وتنتظر الموت. زوجته التي كانت جميلة والتي لم تعد تحتفظ بجمالها السابق، فقدت شبابها بسبب تعبها من العناية بوالديها. ذلك الرجل أراد امرأة أخرى، وحصل عليها وبشيء من الجهد حمل إلى بيته الشباب والثراء ورفس منه المضايقات. ولا أعرف كي ستنتهي هذا القصّة ولكنّي لا أتوقّف عن التفكير بعدم التواطؤ، والرعاية، وعلى الأقلّ، عدم الامتنان. وذلك الرجل لم يكن أحدًا عندما حضنته تلك العائلة التي لا تستحقّ اليوم

أن تعامل بالطريقة عينها. آهٍ! وعندهم أولاد، ولكن الرجل فضّل هجر أولاده للعيش مع زوجته الجديدة دون قيود الماضي. «من الأفضل نسيان الماضي»، هذا ما كان يفكّر به. ولكن هل هذا ممكنٌ؟ عدا عن ذلك، فعند الطلاق تمكّن من الاستيلاء على ما كانت تملكه زوجته وأسرتها من مقتنى زهيدٍ، فقد كانوا يثقون به وأمّنوه على كلّ شيء. وكان آخر ما قام به قبل الضربة القاضية والهجر. فماذا تقول يا سقراط؟ ما رأيك بهذا؟ ولا تقل لي إنَّ فكّ الارتباط هذا بالسعادة هو استثناء. هكذا يتصرّف الناس. هل ولدوا هكذا؟ لا أعتقد. وأنت محقّ، إنّهم يصيرون على هذه الحال. ولماذا؟ أنا بصراحة لا أعرف.

هل تريد المزيد من قصص انعدام الأخلاق وقلّة الأدب؟ هل تريدني أن أخبرك عن ولديْن قرّرا قتل والديهما كي يحصلا وبسرعة على الميراث؟ هل تريدني أن أخبرك عن زوجٍ ضرب زوجته لأنّه شكّ بإخلاصها له، في حين أنّه كان يتمتّع بالعيش مع ثلاث عشيقات أو أربع؟ هل أروي لك قصّة فتاة، بسبب محادثة أو إقامة علاقة مع شاب من ديانة مختلفة عن ديانة والدها، ضُربت حتى الموت؟ هل تريد منِّي أن أخبرك عن شباب قتلوا شابًا آخرًا بسبب ميوله الجنسيّة المختلفة؟

لا أعلم أن تسكن يوطيوبيا، قد لا يسنح لي عمري باللقاء بها. أعرف أين أسكن أنا. هنا في رماد البشريّة.

لا تتخلّى عني، يا صديقي!

مور

بما أنَّ الكلام هو ممارسة للسلطة، فالمتكلّم
الذي لا التزام له بالحقيقة لا يتفوّه إلَّا بما
يريده السامع فردًا كان أو جماعةً

الرسالة الخامسة

صديقي مور،

لن أتخلَّى عنك ولا عنِّي ولا حتَّى عن البشريّة وإن كانت كلّها مليئة بالرماد يترتّب علينا، نحن الذين نرى أنه علينا واجب التنظيف، أن نعمل كي تعود الأرض التي تحت الرماد إلى الإزدهار من جديد.

إن الطبيعة بكرمها تُفاجئنا. هل لاحظت التحوّلات التي تعرضها لنا الفصول؟ في الشتاء، يظهر الموت على بعض الأشجار، وبمعجزة تعود إلى الحياة في فصل الربيع. وللشتاء جماله، أتكلّم عن التحوّل، عن الموت الظاهر، عن التغيير. التغيير أمرٌ ضروريّ. ونحن، البشر، نملك هذه القدرة، القدرة على فهم هذه التغيّيرات إذا تأمّلنا بالطبيعة. يمكننا أن نرى، يا صديقي، يمكننا أن نفسّر، أن ننظّف، ويمكننا أن نبني. ونحن في المركز. وكي نفهم الطبيعة يجب أن نفهم أنفسنا وكي نتمكّن من هذا يجب علينا ألَّا نبتعد عن الطبيعة. هذا هو الحدث الذي نسعى اليه أوّلًا لصياغة الفرد من جديد، ومن ثمّ السياسة، التي تتكّون من أفرادٍ عديدين.

أنت تتكلّم عن نظام مغلق؛ سأجرؤ مقترحًا عليك أن تتأمَّل بالأنظمة، فعلى الرغم من انغلاقها الظاهر، فإنَّها تخفي بعض الشقوق. فلنتسرّب من الشقوق بتكتمّ. إنّ التخَيّل أنّنا نملك القدرة على تفجير النظام قد يبدو ساذجًا، ولكن لماذا لا نمضي ببطء، ونتعرّف ونغيّر باحثين عمّن هم مثلنا؟ هناك آخرون لديهم هواجسنا، فمن الضروري أن نجدهم ونعزّزهم وأنت تملك الخبرة لذلك. أنا لست إلَّا هائمًا في الأرض، وبعض أرجائها

ليس بالمسكون. عندما لا أرى أحدًا، اغتنم الفرصة كي أرى نفسي، متأمِّلًا بالطبيعة التي أنا جزء منها. أنا جزء من الأرض، جزء من الشجر، وجزء من الحيوان. أنا حيوان. حيوان يفكّر، حيوان يملك عقلًا للتعمير وللتدمير. لا أعتقد أنّ التدمير هو جزء من جوهري لأنَّ الدمار هو نفي ما أنا. مثل عصفور، ولأنَّه طليق، يختار العيش داخل قفص. لا أحد يقوم باختيار كهذا واعيًا ممَّا يفعل. ربما رأى العصفور الطعام الموجود في القفص وأُغريَ بلذّته وأراد ان يستطعم به دون العلم ممّا سينتج عن ذلك الاختيار. إنّه لا يرى إلَّا الأكل، لا يفكّر إلّا بالطعام، لا يتصوّر إلّا تلك اللحظة.

نحن عصافير أيضًا، تغشّنا الملذّات التي تبدو دائمة مستديمة، ولكننا في النهاية نتسّخ بكلّ أنواع العبوديّة. فقد تكون السلطة نوعًا من العبودية. ونقوم بكلّ ما بوسعنا كي يكون الطعام هناك. أمَّا الطيران؟ فقليلًا قليلًا نبدأ بنسيان ما هو لنا. فالطيران في جوهرنا أكثر من الأكل. ثمّة رجال ونساء يصنعون من السلطة حاجة للذة الفوريّة، ولذلك يستعملون السلطة كي يبقوا في السلطة. لا شيء غير هذا، بدون طيران، بدون آفاق ولا أحلام.

صديقي مور، لنتكلّم عن الحرّيّة. خلاصنا هو الحرّيّة. إنّي أُغري طلّابي بقصص الأرض وأتمناهم أحرارًا، وألّا يقبلوا بحصّة الطعام المعيّنة وألَّا ينخدعوا بوعودٍ كاذبةٍ. أنت خُدعتَ، وأنا أيضًا. فالكلام المغري خطرٌ جدًا. وللكلمة قوّة مذهلةٌ. يجب الحرص. حصّة الطعام الموجودة في القفص مغريةٌ أكثر ممّا نعتقد ونحن بالقرب منها. فمن البعيد، أسهل علينا أن ندرك أنَّها حيلةٌ ولكن من قريب لا تبدو الحيلةُ حيلةً، على العكس يبدو مظهر الغذاء شهيًّا. وإذا اعتدنا لفترة على نتناول الطعام، ربما ننسى الأفخاخ التي تمنعنا من الطيران، وفي أسوأ الأحوال، قد ننسى أنَّنا ولدنا للطيران. ويومًا ما، إذا فتح شخصٌ الباب، ربَّما سنفضّل البقاء

داخل القفص، لأنّ خوفنا من الحرّيّة سيقيّدنا في القفص. هذا هو الخطر، يا عزيزي، وعلينا أن نحاضر ضدّ هذا.

أنت معلّم والمعلّم يُعلّم الإيمان بطبيعة البشر ولا يتخلّى عن توليد ما هو داخل الطلاب. فالمسألة كالتوليد يا صديقي، فإن القابلة أو الطبيب ليسا إلّا واسطة لولادة الحياة. وهذا ما نفعله عندما نربّي. إنَّ المعرفة هناك، بانتظار من يولّدها. الحرّيّة هناك، متعطّشة لإظهار وجهها. لا لإجهاض الحرّيّة، لا لإحباط إمكانية المعرفة. والأكثر روعة، يا صديق، هو معرفة أنّ كلّ شخص لديه هذه الإمكانية وكلّ ما يحتاجه هو تنشيطها فقط!

أوحيتَ في رسالتكَ أنّ السلطة لا تُفسِد، بل تكشف عن الفضائل أو الرذائل فحسب. أودّ أن أنتقل قليلًا إلى ما بعد ذلك، متّفقًا معك على ما قلت. يبدو لي أنّ الشخص يكشف أمام السلطة نضجه أو عدم نضجه من خلال ممارسة السلطة. وسأشرح أفضل: هناك أناس لم يتهيّأوا لممارسة السلطة، وهذا خطير، لأنّهم ينبهرون بسرعة، لا يتمكّنون من التمييز بين التملّق والصداقة. في نهاية المطاف ننسى أنّ السلطة ليست دائمةً وليست وسيلة للمصلحة الخاصّة. نحن كائنات عقلانيّة واجتماعيّة، والسلطة جزء من الحاجة للتعايش الاجتماعيّ. يملك المعلّم سُلطةً يحتاج للنضوج كي يمارسها. فنحن نثق بالمعلّمين لتوليد هذه المعارف الجديدة والرحلات الجديدة.

الطبيب لديه سلطة أيضًا ويجب أن يكون ناضجًا لاستخدام العلم الذي يتقنه لصالح كرامة الناس وصحّتهم. والموضوع عينه بالنسبة إلى القاضي، فسلطته هائلة وأحكامه تتطلّب النضج. البِنَاء أيضًا، جزءٌ من عمل المهندسين والمقاولين، هو ممارسة سلطة هائلة، وهلمّ جرًّا مع كلّ أولئك الذين يعملون بمواجهة الناس وبتوجيههم. القوّة المضيافة، قوّة المعلومات الصحيحة، وهذا لا يعني أنّه لا يمكن للناس أن يخطئوا، ولكن ينبغي أن نحذر، لأنّ المعلومات المعطاة سيتمّ استخدامها من قبل الآخرين،

الذين سيصابون بالسوء نتيجة تهاون من هو غير ناضج كي يقول: «لا أعرف»، «سأحاول الاستطلاع».

يا عزيزي مور، يمكن للخطاب أن يكون خطرًا جدًّا، بما أنَّ الكلام هو ممارسة للسلطة، فالمتكلّم الذي لا التزام له بالحقيقة لا يتفوّه إلّا بما يريده السامع فردًا كان أو جماعة. الخِطاب السفسطائيّ خطير، وما يحزنني فهو رؤية الكثير من المعلّمين الذين يتحوّلون إلى سفسطائيين، بحثًا عن نجاحٍ سريعٍ. لا يهتمّ السفسطائيون بتقصّي الحقائق، بل يبتغون الوصول إلى السلطة مُعتقدين أنَّهم بتهدئة اضطراباتهم سينجحون، فقط لا غير.

لنرجع إلى موضوع التوليد، فكلّ حياة تحتاج إلى شيء من الجهد كي تولد. هناك الانتظار، وهناك النمو ومن ثمّ الولادة. وهكذا المعرفة، والصداقة أيضًا. فإنَّهما لا تولدان بين ليلة وضحاها، أمّا النيّة فنعم، ولكن التاريخ لا! ينبغي على التاريخ أن يكون تاريخًا، وهذا واضح أليس كذلك؟ لا. فنحن نريد دائمًا أن تولد المعرفة قبل أوانها. هذا هو عدم النضج. علينا توخّي الحذر وانتظار الوقت المناسب. أخشى من خطابات لا تمتُّ بصلة إلى المعرفة. الخطابة موهبة رائعة، ولكن الحديث دون فحوى، دون الحقيقة، يمكن أن يتحوّل إلى دعوة فقط للاستمتاع بالطعام الذي في القفص. وهكذا وداعًا للحرّيّة! آه! الحرّيّة الجميلة والحسّاسة. وما أكثر من يريد القبض عليها. وأقول مرّة أخرى: من يسجنك بكلماته المضلِّلة هو سجين أيضًا. فالسياسيُّون الذين خدعوك، يا صديقي، هم مسجونون في القفص ذاته الذي يودّون أن يسجنوك أنت فيه. لا إفلات من العقاب لمن يأذي الحرّيّة أو يقضي عليها. قد يستمرّون على هذه الحال لفترة من الوقت، ولكن هناك محكمة لا هوادة فيها تعيش في ضمير كلّ واحد منّا. وعندما تفشل المحكمة المدنيّة، لعدم توفّر المعلومات أو الأدلة اللازمة للإدانة، فهو الضمير من يتّهم المنشقّين عن الجوهر وسجّاني الحرّيات.

يمكنني، كما يمكنك أنت أيضًا، إدراج عدد كبير من المواقف التي تُظْهِرُ

شرّ البشر أو أنانيتهم. ولقد شاهدنا هذا أكثر بكثير ممّا كُنَّا نودّ. إلَّا أنَّني أصرّ على أنّ هؤلاء الناس يخطئون بسبب الجهل لا لأنّهم أخذوا قرارًا بذلك. فالطيور داخل القفص لم تقرّر الرحيل أو البقاء. المشكلة أصلًا تكمن في أنَّهم دخلوا القفص. لأنّ الخروج منه أكثر تعقيدًا. أنا لا أريد أن أبدو متعاطفًا للغاية، كلّ ما أريده هو أن نفكّر معًا، إذا ما كان أولئك الذين يفضّلون الرذائل على الفضائل هم أيضًا ضحايا للعبودية؛ لقد دخلوا الأقفاص... وماذا عن الآن؟ هل لنا القدرة على فتح أبواب الأقفاص؟

أو هذا ادّعاء مِن قِبَلِنا؟ وإن لم نفتحها، فمن الذي سيفتحها؟ وكيف؟

لا يمكننا أن ندع الأفق خاليًا مِن الذين ولدوا للطيران.

إنْ كان هناك شرّ جوهريّ، ربَّما تكون وظيفتنا عديمة الفائدة. أمّا إنْ كان الأمر متعلّقًا بالجهل أو عدم النضج، فالحقل خصب، وهناك الكثير ممّا ينبغي عمله.

مع محبّتي
سقراط

إنَّه فصل الشتاء وكلّ الحقول التي أراها
يغطّيها البرد. ولا يبان بين الجبال صدعٌ ما،
ويظهر منه مسافةٌ صغيرةٌ مغطّاةٌ بالخضار.
وأنا طائرٌ من المناطق الاستوائيَّة.

الرسالة السادسة

عزيزي سقراط،

يا ليتني أصدّق أنّ الأمر ليس شرًّا إنّما هو عدم نضجٍ. لكنّي أفشل باعتباره كذلك. هل هم غير ناضجين في الستين، أو السبعين أو الثمانين من العمر؟ هل هم غير ناضجين بعد ممارسة السلطة طوال أربعين أو خمسين سنة؟ نعم، لأنَّ من يَملك السلطة لا يريد أن يتخلّى عنها. يريدون أبديّة السلطة. عندما أشاهد استعراض السلطات أذهل لطول الوقت الذي مرّ عليهم وهم في المكان ذاته. أحبّ استعمال القفص كاستعارة، وإنهم يزينون القفص لدرجةٍ لا يمكنك بعدها مشاهدة الأسلاك. الرخاء يقضي على الحاجة للطيران. إنَّ المشكلة في الرخاء والراحة لأنَّهما يسببان ضمور العضلات وضمور العقل. فلا نعود نحبّ السير على الأقدام لأنّ المقاعد الوثيرة جذّابة جدًّا! ولا نعود نريد النهوض لأنّ الحياة في السرير أسهل، وهكذا تمضي الحياة. حاشيةٌ معفّنةٌ تخدم بطاعةٍ عمياءٍ من يملك بيده الأمر.

أنت تتكلّم يا سقراط عن الضمير. وأنا لا أدري إن كان هؤلاء الناس عِندهم ضمير. أنا أراهم يضحكون كثيرًا، يتكلّمون كثيرًا ولكن لا يعنون شيئًا ويضحكون، كلّ منهم يضحك أكثر من غيره. كأنّهم في مسابقة، من يضحك أكثر يريد أن يبلّغ الآخرين أنّه أفضل منهم. لذلك يتوجّب الضحك، الضحك دون أيّ كسل، دون أيّ توفير. ممَا يضحكون؟ عندما نبدأ بالضحك ويتبعنا آخرون، بعد فترةٍ وجيزةٍ لا يمكننا أن نعرف ما سبب الضحك. «إنّه ضحك المنتصر»، قد يقول شخص ما: «المنتصر

يضحك.» على ماذا انتصر يا ترى؟ أعظم انتصارٍ هو أن تبتعد عن ذلك الطابور الضاحك. أكبر انتصار هو عندما ننتصر نحن على أنفسنا ولا نسمح بأن يخدعها قفص مريح. إنّي أوافق معك ولكن ليس هناك ما يمكننا فعله. وإذا حاولنا إقناعهم بأنّهم يعيشون في أقفاص قد يتّهموننا بالجنون أو يعتدون على حياتنا. أقفاصٌ، كهوفٌ أو ثقوبٌ، لا يهمّ. فإنَّهم يعيشون بعيدًا عن الضوء. يخافون من الضوء. ليسوا معتادين على الضوء. أنظر إلى الأقفاص المزيَّنة، لا يدخلها الضوء؛ أنظر الى الكهوف، فبالإضافة إلى السلاسل التي تقيِّدهم فيها، لا تتمتّع بضوءٍ. والأسوأ يا صاح، إنّهم لا يدركون أنّ السلاسل تقيّدهم. أليس كذلك؟ لا يفقهون شيئًا. وإن كلّمناهم عن السلاسل، وإن أريناهم السلاسل سيقولون إنّنا جزءٌ من فريقٍ مجنونٍ يرغب في زعزعة استقرارهم ويحكمون علينا بتهمة إفساد الأبرياء، لأنَّهم يعتبرون أنفسهم أبرياء برفقة سلاسلهم ووساداتهم الوثيرة. ونحن، ربما سيكون نصيبنا الموت ومعنا تموت إمكانيّاتٌ وإمكانيّاتٌ، إنّه إجهاض مستقبل حرّ، مستقبل فاضل.

إنّي في الشتاء يا سقراط، ليس في الشتاء الشعريّ إنّما في شتاء الثلوج التي تغيّر المناظر، ليس شتاء الدفء، والحضن اللازم. إنّي في شتاءٍ البرد دون تدفئةٍ وإنّي يا صديقي أجمَد. أنظر إلى العالم ولا أفهم ماذا حصل به. وأنت من يقول، كما يقول كلّ من يفقه، إنَّنا اجتماعيّون وعقلانيّون، هل ترانا نتصرّف كإجتماعيّين وعقلانيّين؟ لا، هذا غير ممكن. الفظائع التي نرتكبها، عدم الالتزام ببعضنا البعض، رائحة السلطة الكريهة، موت الأبرياء والبراءة كلّ هذا يبيّن أنّنا لا نملك شيئًا من الاجتماعيّين. نحن وحوش، أو سأستخدم ما أنت تؤمن به: نحن نستوحش. إنَّها حركة وهميّة، للذّةٍ فوريّةٍ وسريعة الزوال، ولكن من سيصدّق ذلك؟

من يشغل مراكز السلطة تكون أجهزة المعلومات متاحةً له وبقليلٍ من الموهبة، سيتمكّن من استخدامها كأداة للخداع، ومن الخداع ينتقل إلى التقاعس عن العمل، وهكذا يخمل الجميع أمام الإعلانات التي يقوم بها

المنتصر الذي يغريهم فيتحوّلون إلى عبيدٍ متطوّعين. هل ثمّة ما يُحزن أكثر من عبوديّة طوعيّة؟ أمّا الأسوأ فليس الذين يخدمون بسبب الخوف أو أولئك الذين اعتادوا على الخدمة، ولكن أولئك الذين يعملون راغبين في المشاركة برذائل السلطة. يخدمون لانبهارهم بها فيضحّون بكلّ شيء، بالكرامة والحرّيّة واحترام الذات، فقط يهتمون للتقرب ممن يملك السلطة. كموظف تُسَاء معاملته، يُهان، ويُداس، ولكنّه يحصل على راتب جيّد فإنّه يعاني من كلّ شيء ينتج عن خصوصيّات سيّده، في صمتٍ، لأنّه يحبّ كثيرًا المبلغ الذي يتلاقاه ويخاف الخروج بحثًا عن شيءٍ جديدٍ. وهذا ما يحدث أيضًا مع مساعد حاكمٍ كثير الرذائل. فالمساعد أو الوزير أو الأمين أو أيّ شخص آخر يحتفظ لنفسه بعدم الاعجاب ويقضي حياته قابلًا بكلّ أنواع الطيش لمجرد البقاء بالقرب من السلطة.

أنظر يا سقراط، أنا أتحدّث عن حالتين: عن أولئك الذين يفقدون إنسانيّتهم من أجل المال، وأولئك الذين يفقدونها من أجل السلطة. حاول معهم إيلاد الأفكار تلك. حاول أن تقوم بدور القابلة أو الطبيب لمساعدتهم. لا تضيّع وقتك يا صاح. لن يولدوا! أقول هذا لأنّي عشت هذه المحاولات، معتقدًا أنَّه يكفي إظهار السلاسل وإعلامهم عن ضوء الحياة خارج الكهف. تراجعت. تخلّيت عن المحاولة. فليعيشوا هناك. وليتصرّفوا كالكلاب عند أقدام الموائد عندما يرمون إليها بكسرة خبز تهز أذنابها مبدية الزهو. ويبدو أنّ الكلاب غير عقلانيَّة، أمّا البشر لا، أليس كذلك؟ ما الفرق؟ الفرق في العبوديّة الطوعيّة. الكلب يبقى على هذه الحال لأنّه لا يملك إمكانيّة أخرى. ولكن نحن البشر؟ نركع لماذا؟ نُطيع لماذا؟ إمّا أن نقوم بهذا، أو نبقى خارج السلطة. وهكذا الأمور. هكذا يفكّر الناس. وهذا ما كنت لا أؤمن به ولكن الآن، لم أعد أعرف. ما البديل؟

إنّه فصل الشتاء وكلّ الحقول التي أراها يغطيها البرد. إنَّه فصل الشتاء وكلّ الحقول التي أراها يغطّيها البرد. ولا يبان بين الجبال صدعٌ ما، ويظهر

منه مسافةٌ صغيرةٌ مغطّاةٌ بالخضار. وأنا طائرٌ من المناطق الاستوائيَّة. أنا بحاجةٍ إلى مكان غير مجمّدٍ لأستريح فيه. ولكنّه غير موجود. وأعلم أنّي أبحث منذ وقت طويل. جناحاي بدءا يتجمّدان. وليس لديّ خيار. عليّ أن أقبل الموت بسبب عدم وجود مكان دافئ. جاءني أمس أحد معارفي القدامى. وكنت قد سمعت من أحدهم أنّ ذلك الشخص لا يزال يتمتّع ببعض الهيبة برفقة مسؤولٍ ما. فاستقبلته دون أيّ حذرٍ وفي البدء كلّمني عن شوقه لي وعن رغبته في مقابلتي. وأخذ يمدحني دون أي إحراج، لما سيأتي بعد ذلك. بدون انتباه، عندما ظننت أنّني أرى عشًّا لراحتي، جاء الطلب، والقصد، والمنفعة. لم تكن الزيارة التي قام بها والمدح إلّا مقبّلات. نعم، وهكذا الأشياء. لا أعتقد أنَّه لا يجوز للناس أن يساعدوا بعضهم البعض، بل على العكس من ذلك، بما أنَّنا حيوانات اجتماعيّة ويعتمد كلٌّ منّا على الآخر للعيش، فمن الطبيعيّ أن نساعد بعضنا البعض. ولكنّ المسألة هنا ليست إلَّا منفعةً، نفاقٌ لا أكثر ولا أقلّ. مجرّد وعد بالسلطة حتى يهرع المتملّقون، أسرابًا أسرابًا، إلى مأدبة لم يُدْعَوا إليها. لا أهميةً كبيرةً لهذا. يكفي التخلّي عن منصب في السلطة كي يبقى الكثير من الطعام على الموائد بسبب غياب الضيوف. أنظر يا عزيزي سقراط، أنا لا أقول إنّي موافق على هذا، بل أقول إنّ الأمور على هذه الحال، لا أقول كيف يجب أن تكون، أو كيف يجب أن تصير، أنا أتحدّث عن حال الأمور، وهذا ما يجعلني لا أؤمن بالطبيعة البشريّة. أنا لا أقول إنّ الناس يولدون على هذه الحال، ولكن هي الحال التي يعرّفون أنفسهم بها. ما سبب ذلك؟ أنا بصراحة لا أعرف. كلّ ما أعرفه هو أنّ الثلوج لا تتوقّف عن السقط، ولم يعد لدي المزيد من الوقت لمواصلة البحث عن مأوى ألجأ إليه.

مع مودتي

مور

إنَّ مساحة العمل السياسيّ هي مساحة السخاء؛ هي قرار بعدم إتاحة الوقت لاستمرار الخطأ. لهذا فالنظام الديموقراطيّ يتفوّق على أيّ نظام سياسيّ آخر

الرسالة السابعة

صديقي مور،

وللبرد أيضًا جماله! أتعلّم أنّني في هذه الأراضي البعيدة، بالإضافة إلى التنزّهِ اليوميّ وإلى اللقاءات والتجارب التي تُوَلَّدُ منها، أحفظ وقتًا للقراءة عن أراض وجولات وتجارب أخرى غير تلك التي أقوم بها وأختبرها. إنّ الكتب تعطينا تلك القدرة. قدرة السير على طرقات الآخرين وقدرة التعلّم من تجاربهم. فالكتب تقودنا إلى أماكن وإلى أزمنة ربما ما كنّا نستطيع الوصول إليها. فقد قرأت وأقرأ عن أعمال وعن فقدان آمال. قرأت وأقرأ قصصًا حقيقيّة وأخرى تَمَكّن الخيال البشريّ من تأليفها.

أمّا عندنا، فهناك الكثير من النصوص المسرحيّة. نحن أناس نحبّ المأساة. الروابط العائليّة تحتلّ وسط المسرح والجوقة حولها. مجموعةٌ من الأصوات تشوّش الإداء المركزيّ. ففي الوسط كراهيّة، وإساءة استخدام السّلطة، وفي الوسط كذب وثأر وتدمير. ومن يمرّ ولا ينتبه إلى ما حول المركز يعتقد أنّ المسرحيّة هي تلك لا غير. ولكن إذا انتبهت إلى المجموعة وعشت قليلًا مع التمثيل ستدرك وجود الجوقة. أصواتٌ تنشد خطابًا آخرًا. أصواتٌ تعلن وقتًا جديدًا. أمّا الوسط فتحتلّه رهبةٌ أرستقراطيّةٌ فاسدةٌ. خليطٌ خاطئٌ. حيث لا وجود للآخر إنّما فقط الأنا هي الموجودة، وحيث التباهي بحقوق زائفة. كلٌّ يفكر بأنانيّة حول ما يملك وما يحبّ أن يملك، لا أعرف إذا كان يحبّ هو الفعل المناسب لهذا المشهد. ربّما كان الأكثر ملاءمةً هو فعل: يودّ. يقضون حياتهم من أجل لا شيء. لا، ليس من أجل لا شيء.

لأنّ اللاشيء تَغيّبٌ، وهناك حضورٌ سيّءٌ في تلك المنازعات دون مبرّرٍ.

لكن يا صديقي، إنّ الجوقة موجودةٌ وأصوات أخرى موجودةٌ والبرد لن يبقى أكثر من الفترة التي حدّدها الفصل الخاص به، ثمّ يليه فصلٌ آخرٌ وآخرٌ وهكذا تتوالى الفصول، ولكلّ واحد منها نمط حياةٍ ووجودٍ. إنّها حكمة الطبيعة. ونحن ثمار الطبيعة ذاتها ولو تعلّمنا منها لما كنّا عشنا برعبٍ. كلّ شيءٍ يزول وهذا ليس تفكيرًا جديدًا، هو كمياه نهرٍ أو كضفتي نهرٍ لدى مروره. وليس كمن يتأمّل ببعض اللحظات تاركًا أخرى. كلّ شيءٍ هو مرورٍ. وعندما نجاهد كي نطيل وقت موسم الدفء فهذا يعني أنّنا لا ندرك الوقت ولا حتى أسباب المجاهدة.

نعم، أنت عصفورٌ. والعصفور يعلم أن للبرد موسمًا ولذلك يهاجر إلى أماكن أخرى منتظرًا رحيل الثلوج فيعود مع عودة المكان إلى هيئته المضيافة. وقد تكون هذه هي الحكمة التي نحتاج اليها ففي حضور صقيع الإنسانية الغادر، ما علينا إلّا الانتظار، لا الاستسلام، أبدًا، فقط الانتظار.

شابٌ من الذين أتكلّم معهم اعترف لي بخطأٍ ارتكبه. كان يحبّ صبيّةً جميلةً تكمّل عيوبه. فالحبّ اكتمالٌ، لقاءٌ، سحرٌ. وكان الكلام السار واليد باليد يرسمان قصّة إنجازاتٍ. وكرّست الشابة له حبًّا لطيفًا وعميقًا. كانت تهتمّ به، كانت تفاجئه، وكانا يضحكان معًا وأكثر من مرّةٍ كانا يحمدان السماوات على تلك النعمة. حسنًا، ولكن الوقت يمرّ ومعه تمرّ لقاءات أخرى. أخذ الشابّ يستمع لنصائح شباب آخرين يتحدّثون عن اللهو في أمكنة أخرى. وسمح لنفسه بأن تقودوه. وهكذا بدأ يلتقي بامرأة هنا وبأخرى هناك، وكان الشاب دائم التبرير بأنّ ذلك لا يسيء إلى الصبيَّة المفضّلة عنده ولا يُنْقِص من قيمتها وكان متأكّدا أنّها لن تعلم بمغامراته.

ذات يوم، شاهدَتْه. بدون حذر: كان يداعب امرأة من مغامراته العديدة

ويغازلها. شاهدته ولم تقل شيئًا وغادرت. رحلت وقد كسرها الألم. حاول أن يكلّمها، ولكنّها ما أرادت سماعه.

اعترف الشاب لي أنّه خسر معنى حياته، قال بقصيدة إنّ الشّعْر سيهجره. وتكلّم آسفًا كيف لم يدرك قيمة الحبّ. كان لديه كلّ شيء، والآن لم يعد لديه أيّ شيء. بكى وبكى طويلًا وقد أفقده الندم صوابه. وكلّ ما قمت به أنا كان الاستماع له. ثمّة أخطاءٌ تُرتكب، ولكن ثمّة زلّاتٌ يسهل تصحيحها أكثر من زلّاتٍ أخرى. لا أعرف الكثير عن قصتهما كي أحاول أن أتخيّل النهاية. ولكنّي أعرف أنّ هناك ما يدفعنا إلى التفكير أن أسرارنا لن تُكشف. أَمَا كان من الأسهل أن نعيش دون تلك الأغطية الخطيرة؟

في السياسة، الطريق هي ذاتها. فقد تعلّمت ممّا قرأت أنّ الكثيرين يضيعون لأنّهم لا يتصوّرون أنّهم سيكتشفون. ولكن لماذا اختاروا الخطأ؟ أو يا ترى ألا خيار آخر أمامهم؟ وإن كانت تلك الحال إذن هناك شيءٌ غير سليمٍ في تركويننا، ولكن لا يمكنني أن أوافق على هذا. لا يمكنني أن أتصوّر الشتاء دون فكرة وجود فصلٍ آخر. فالبرد سيرحل، يا صاحبي.

أَلَم تَكُن قبلةَ الحبيبةِ كافيةً؟ أكان هناك ضرورة لقبلةٍ أخرى ولأخرى من امرأة أخرى؟ ولماذا؟ ألا يكفي الشرف بخدمة الشعب؟ لمَ المساهمة في رصّ صفوف الفاسدين وسالبي أموال الناس؟ لمَ الاستفادة بوجبة غداءٍ أخرى يقدّمها من لا يعبأ بامتياز العيش خارج القفص؟

بكى الشاب، وبين غصّة وأخرى قال: "لو كان بإمكاني الرجوع إلى الوراء لما فعلت ما فعلته." وكم من أناسٍ يتمنّون قول ذلك، أو بالأحرى، يتمنّون الرجوع بالوقت إلى الخلف. وكم من غيرهم يتصرّفون باستهتارٍ ودون تفكيرٍ...

يا صاحبي، ألا تعتقد أنّه يمكننا الاستنتاج أنّ المشكلة هي في عدم الحوار بين الفعل والتفكير؟ إن لم أكن مخطئًا، وإن كان هذا الأمر، فيلزم

علينا مواصلة الإيمان بالإنسانيّة ومحاولة مساعدة أنفسنا وبعضنا البعض وتشكيل هذا الحوار. وأنا أعلم أنّ الأشياء التي مررتَ بها قد لا تسمح لك بهذا التشتّت النظريّ. كحال ذلك الشاب. فإنّ حبيبته قد تخلّت عنه. ويبدو لي أحيانًا أنّ السياسة هي محبوبةٌ رحلت ولن تعود. وعلاوة على ذلك، فإنّه يبدو لي أنّك لا تؤمن برحيل الشتاء. حاول أن تتذكّر شتاءات أخرى قد رحلت. فبكلّ تأكيدٍ ليست أوّل مرّةٍ تتعايش مع الصقيع ومع الانزعاج من عدم العثور على مكان مريح، ولكن ماذا، ولِمَ فجأةً، هكذا كمعجزةٍ، تبدأ الشمس بإذابة الجليد ويبدأ الخَضار الدفين بالبزوغ ويستقبلك بابتسامة كما حدث في أكثر من ربيع!

إنّنا نعيش مع أنظمةٍ رهيبةٍ. لقد شاهدنا السلطة في أيادٍ بخيلة. لقد شاهدنا عدم الكفاءة تُفْسِد إمكانيّة أوقاتٍ أفضل للكثيرين. كما وشاهدنا العكس. إنّه من المستحيل ألّا تكون، في أركان هذه السلطة، قد قابلت أناسًا ذوي نوايا حسنةٍ ومهاراتٍ حقيقيّةٍ تميّزهم من غيرهم. إنّي متأكّد من ذلك. حاول أن تتذكّر، يا صديقي. حاول أن تتذكّر الفصل السابق لفصل الشتاء، والفصل التالي له.

أعتقد أنِّي بالغت في جرأتي. من أنا كي أعلّمك! وأنت الخبير، ومن فَهِمَ الزمان والمكان؟ الزمان الذي يمرّ والمكان الذي يوسّع الطريقة التي من خلالها نرى الوقت. إنَّ مساحة العمل السياسيّ هي مساحة السخاء؛ هي قرار بعدم إتاحة الوقت لاستمرار الخطأ. لهذا فالنظام الديموقراطيّ يتفوّق على أيّ نظامٍ سياسيّ آخرٍ. إنّنا نخطئ لكنّ الوقت سوف يعطينا إمكانيّاتٍ أخرى لنحظى بمكانٍ أفضل، لإدارة ما هو للعامّة.

لقد حزنت على ذلك الشاب الذي لم يعرف أن يعطي قيمة للحبّ، وأعترف أنّي تعلّمت من خطأه أيضًا. فلنتعلّم من أخطاء الآخرين، دون كسلٍ. هل يا ترى تأذن لي بأن أرشدك؟ لا تضيّع المعرفة المتراكمة في خيبات الأمل العديدة التي يمكن أن تعيشها. استخدم ذلك لصالحك،

ولصالح القيم التي نؤمن بها. ولن نسمح، بتغيّبنا، أن يحضور أولئك الذين لا يعتادون التفكير قبل التصرف؛ أولئك الذين يتجاهلون العاطفة، وبذلك يتجاهلون أنفسهم والآخرين، وهم يفسدون السياسة، لكنّ السياسة أكبر منهم ونحن نعرف ذلك، أنت تعرف ذلك أكثر منّي، لأنّك عشت الألم أكثر منّي. أنا أعرف الأشياء من الكتب ومن الكثير الذي تعلّمت أن أحبّه نتيجة إخلاصك.

لنتقدّم يا صاح! وعساها رسالتي هذه تصلك وأنت تتنعم بالدفء.

سقراط

الطموح كالمخدرات. دائمًا يطلب أكثر.
إنَّه إدمان. وليس سلطة لخدمة الآخرين
أو لخدمة قضية. إنَّه كموكب من الغرور
والخصوصيّات.

الرسالة الثامنة

عزيزي سقراط،

لا أشعر بالدفء، بل والبرد أشدّ من السابق. كنت أراجع بعض الملاحظات ومعها حَضرت ذكريات غير سارّة.أعجبت برسالتك العاقلة وبنصّك الجيّد. لقد لاحظت أنّك بالإضافة إلى سير المسافات الطويلة، تقضي الكثير من الوقت مع الكتب. وهذا جيّد.

وددت لو أقول إنّي أوافقك على كلامك، ولكنّي لو فعلت لما كنت صادقًا. فذلك الشاب العاشق لم يبكِ ندمًا على خطأه ولكن على خسارته، فلو لم تكتشف خطيبته نفاقه لكانت ما زالت معه، لقد بكى الشاب بأنانيّةٍ مَن يُدركَ أنّه هُجِرَ، ولم يبكِ من الألم الذي سبّبه، وهذا ما يُحزنني. مجرد مصالحٍ؛ وأوافق معك أنّها الحال أيضًا في السياسة.

يا لغرابة الأحزاب السياسيَّة، نراها تحاول القضاء على بعضها البعض. الكلّ يشجّع ويطلب الموت للخاسر. أو أن تقوم بما يأمروك به، أو الموت لك، وهذا يمكن أن يحدث داخل الحزب ذاته. نعم، لأنّ التدمير غالبًا ما يكون في الداخل أيضًا!

لقد مللت من الطموح للحرّيّة وللتوصّل إليها. مللت من القول أنّ اليوطوبيا تقودنا إلى اتجاه ما. أيّ اتجاهٍ هذا؟ فنحن دون اتجاه، لأنّ الحاضر يحاصرنا والمحاصر لا يمكنه الذهاب إلى أيّ مكان.

إنّ حضارتنا تريدنا أن نكون الأوائل في كلّ شيء: في المدرسة، في الألعاب، في النادي وفي السياسة. للفائز التصفيق وللخاسر الازدراء. وبما أنّك تحبّ

مفهوم التذكير، فلنتذكّر الساحات والمقاتلين الذين كانوا يتحوّلون إلى أبطال لأنّهم يتمكّنون من قتل الآخرين. والشعب يهتف ويصفّق. أين الخير في هذه الإنسانيّة؟ رجلان وسلاحان، رجل يموت فيُحتقَر والآخر ينتصر فيُكَرّم. ستقول لي إنّ هذا كان قديمًا، هنا سنختلف. لأنّنا ما زلنا مستمرّين على هذه الحال. لا أحد يريد أن يتخلّى عن منصب المنتصر.

الطموح كالمخدرات. دائمًا يطلب أكثر. إنَّه إدمان. وليس سلطة لخدمة الآخرين أو لخدمة قضية. إنَّه كموكب من الغرور والخصوصيّات.

لا أريد التقليل من شأنك يا صديقي، لكنّي لا أقول لا لنظريّات قرأتها بل أقول لا لأحداث عشتها.

إذا كان الحسد موجودًا، في نطاق أصغر أو أكبر، في الإنسان، سأقول إنّ الحسد موجودٌ بكثرةٍ في السياسة وفي كلّ شيء. أمّا الذي يجعلنا حسودين فهو عدم القدرة على العيش مع إمكانية وجود شخص أفضل منّا أو يتمتّع بسلطة أكبر. أو حتى بالسلطة عينها. نحن لا نريد أيّ شخص أعلى منّا أو يساوينا، بل أدنى منا –وإن أمكن، أدنى من الأدنى– كيلا يشكّل أيّ خطر علينا بالصعود.

وأقول بعد: عندما يتقدّم طاغيًا منتصرًا، يصفّق له الجميع وينسون أنّه طغى. لقد سمعت بطبيعة الحال بعبارة «الخبز والسيرك»، فإن استعارة القفص (مع وجبات الغذاء والقليل من الزينة) لها نفس التأثير. نعم، فلا يدركون الاستبداد ولا عدم الكفاءة ولا أي وجه من وجوه الظلم. لقد رأيت العديد من السياسيّين يعملِون لتدمير أشخاص كانوا أصدقاء لهم قبل الوصول إلى السلطة، ربما لأنّ هؤلاء الساسة يريدون أن يُعَامَلُوا كالآلهة، ومن كان صديقًا لهم ويعرف أنّهم زائلين ككلّ البشر قد يسبّب الخطر لخططهم، إذن فإنّ أفضل شيء هو سحق الماضي. لأنّهم في الماضي لم يكونوا إلّا بشرًا. إنّ أنصاف الآلهة أولئك يعتقدون أنَّ أصدقاء الأمس يرغبون اليوم بمعرفة الحقيقة التي تخفيها المظاهر والسحر بالسلطة،

وهذا قد يسبب لهم الإخلال بالمستقبل. فالأفضل تدميرهم قبل حصول ذلك.

إنّ الناس يا صديقي يفضّلون أيّ شيء على كَرْبٍ ينتج عن أدراكهم لأنفسهم. وهذا الكلام النبيل عن التفكير قبل العمل فمن المستبعد أن يخرج من الأعمال الخياليّة أو من أطروحات النوايا الحسنة كي يلتقي بالواقع. ليس هناك مَن عنده استعداد للتفكير لأنّ التفكير مؤلم، التفكير يضايق، والتفكير يزعزع الاستقرار لأنّ الاستقرار تضمنه الصورة الخاطئة التي تمكّننا من تقديمها.

إنّ العلم بالأشياء هو أمرٌ خطيرٌ. إذا كنت تجهل الأشياء تتعجب بها أكثر. وأحسن أن يكون هكذا. فالخوف من المجهول وقوّته يضمنان إطاعة الناس.

يقضي الناس معظم أوقاتهم محاولين تدمير أصدقائهم. لا. لم أخطئ. إنّ تدمير الأعداء مفهوم. ولست بحاجة لإثبات ذلك لك. إنّي أتكلّم عن تدمير الأصدقاء؛ للحيلولة دون الأخبار السارّة؛ لفرض النصائح التي لم تُتبَع. «لا تضع يدك هنا، قد يصعقك تيّار الكهرباء، وقد تموت.» وإن لم يكن التيّار بقوّة كافية للقتل فمن المحتمل أن يأمروا بتقويته كي يُقتل العنيد. وهكذا الأشياء: نعم، للوحشيّة ضدّ الآخر ولا للبوح.

كلّما علم الناس أقل عن حاكمهم، كلّما كانوا قادرين على محبته. العلم بالأشياء هو طريق بلا عودة. المعرفة قادرة على قتل الحبّ والإعجاب. إذا علمنا بأسرار من يحكمننا سيبطل أعجابنا بهم. لو علمنا كيف يُعامِلون مساعديهم المقرّبين لشعرنا بتعاطفٍ مع ألم أولئك الذين لا يملكون السلطة، مثلنا. فمن الأفضل إذن أن نعيش مع الخطاب فقط وأقول مرّة أخرى: من السهل أن نسيء. من السهل أن نهين الآخر. من السهل أن نجعل الرذيلة تنتصر على الفضيلة أمّا الصعب فهو الاعتراف بكلّ ذلك. الوجوه المليئة بالتجاعيد التي لا تُرى إلّا عن قرب. أكره التبرّج ولذلك تخليت عن

السياسة وعن كلّ شكلٍ من أشكال ممارسة السلطة. لم أعد أريد! تعبت!

في البداية، كنت أعذر نفسي للمحاولة كي أكون لطيفًا. أنا لا أسعى إلى أن ينصبوا تمثالًا تكريمًا لي. لا. أرجوك أن لا تُسيء فهمي. أنا أعلم أنّني أخطأت وأخطئ، وأعلم أنّي تملّقت في البدء عندما وصلت إلى السلطة لأنّي لم أكن أعلم جيّدًا كيف أتصرّف. وأعترف أنَّ ثمّة سحر بالوقوف قرب حاكم أعلى مرتبة منك. ولكن، تدريجيًّا، يا صديقي، بدأت أرى أن لا معنى لأيٍّ من ذلك. بدأت أدرك أنّه سيكون لوجودي هناك معنى إن كان هناك سبب لوجودي.

بدأت أسقط سياسيًّا عندما بدأت بقول: لا. إنّ قول لا، يبدو تحدّيًّا وكفرًا. فبدأ سقوطي يتعمّق عندما قلت لا لأولئك الذين احتلّوا مراكز أعلى مني وملكوا سلطةً أكثر منّي. وبالضبط من أجلِ ذلك، كان ينبغي عليهم تحمّل المزيد من المسؤوليّة وأن يفرحوا بمعرفة أنّ في المملكة الفاسدة ثمّة من يهتّم بالقيام بما هو صحيح. ولو قلت لك إنّي لم أَخَفْ سأكون كاذبًا. كان من الصعب مواجهة الأسطورة ومعرفة أنّه في اليوم التالي، ستُدان، ولكنّه ليس بالإعدام، بل إدانة بالغياب. من الصعب النظر في عيون الأصدقاء والاعتراف بأنّه لم يكن لديّ القوّة للمقاومة. وعدا عن ذلك فأنّنا نتأخّر لندرك أنّ القوّة القاهرة هي في عدم المقاومة، هو الخروج من المشهد، وعدم التعاهد مع خطاب السياسِيّين القذرين وعملهم.

وكما قلت لك، كلّما عرفت المزيد، كلّما ازدادت صعوبة المحبة. أنا أعرف أن بعد هذه الرسالة الصريحة سيصعب عليك العثور فيّ عن أسباب للبقاء.

سأتفهّم غيابك. لقد اِعْتَقلت واعْتُقلت مراتٍ عديدةً فعلًا. وقد تحوّلت بحرّيّة دون مكان أذهب إليه. وفي برج خيبة أمالي، لم يعد لي إلّا خيارات قليلة ومنها أن أبقى وحيدًا. لهذا لا ألومك إن تخلّيت عني. سيقرؤون اليوطوبيا التي كتبتها، بالتأكيد، ولكنهم سينسون حياتي. فابقَ يا صديقي

على اعتقادك بأنّ ذلك الشاب الذي أساء معاملة مشاعر حبيبته قد شعر بشيء من الندم. أنا باقٍ هنا، مستمعًا إلى موسيقى مَن مات. في الواقع، إنّ الميت هو الوحيد الذي لا يتمكّن من فعل الشرّ ولا أطلب المعذرة منك، لأنّ هذا الشعور لا يبدو لي عاديًّا. الحياة اليوميّة مليئة بالانتقام. ولقد انتقموا منّي بما يكفي. وما تبقّى منّي لا يهم إلّا القليلين.

توماس مور

ولكي ننقذ شبابنا من المآسي العديدة التي تزورنا، يجب أن نعطيهم الأمل. لا الأمل الكاذب، المضلِّل، المتبرّج، كما تقول أنت، بل الأمل الحقيقيّ، فوحده سيحرّرنا من الدمار.

الرسالة التاسعة

صديقي توماس،

كلّما ازدادت معرفتي بك ازدادت محبّتي لك. ولن أتوقّف عن محبّتك بالرغم من الجهد الذي تبذله لذلك. موقنٌ أنّ ثمّة أيامٌ نشعر فيها بحزن أكبر وثمّة أخرى نجتهد كي نرى ما يكمن خلف ما يزعجنا. أمَّا الضيق الذي تشعر به فتبرّره خيبات الأمل الكثيرة التي خصّتك بها الحياة ولكن لا تبرّره قدرتك على التغلّب. أنت حيّ يا صديقي وهذا أعظم قوّة. أمَّا السياسة فلا تُمَارَس في المناصب الأكثر أهميّة أو الأقل أهميّة. إنّها تُمَارس في الحياة اليوميّة حيث يتنفّس آخرون، يسقطون وينهضون. أمّا صديقي الشاب فقد تاب، هل فعل ذلك من أجله، من أجلها؟ لا يهمّ. المهم أنّه ندم وتاب فقد عانى وتعلّم، وربما ينقلب المنطق الذي ذكرته أنت في آخر رسالتك، ولعلّها لا تنتقم، بل تغفر.

عندي كلب أحبّه كثيراً، وكما تعلم أنا أخرج كلّ يوم للسير ومرّات يرافقني وأخرى يلزم البيت. عندما أتهيّأ للخروج ويتنبه أنّني لن أصحبه معي، يستلقي على الأرض وينكّس رأسه وينظر إليّ بحسرةٍ. وعندما يراني أرتّب حقيبة سفري فالحال أصعب، وكأنّه يستغرب أنّ وجوده ليس كافيًا وأنّي بحاجة لأكثر من ذلك. أنظر إليه، ألعب معه وأداعبه ولكنّه قليلًا ما يتجاوب، لأنّه يدرك أنّي ألاعبه فقط لأنّي سأغادره، ولكن عندما أرجع ينسى ذلك الوداع ويحتفل بي ودون توفير. أعطيه طعامًا وأداعبه وعندها يتجاوب، لأنّه يدرك أنّي لا أقوم بذلك كواجب لأني سأغادر بل كمشاركة

في احتياجاته. وعندما أكتب يجلس بجانبي، وإن قمت بأيّة حركة مختلفة ينظر ليتأكّد أن كلّ شيء بخير وعندما يشعر أن هناك شيئًا ما يزعجني يقترب مني أكثر ويكاد يلتصق بي وكأنّه يريد التخفيف عنِّي. إنّه صديقي.

فيا توماس مور، إنّ كان الكلب صديقي فلماذا لا يكون الإنسان؟

إنّي أدرك أن هناك من يريد تدمير الآخرين عند وصوله إلى السلطة ولكن ليس الجميع هكذا. ليست القاعدة. ومن يتصرّف بهذه الطريقة ليس إلَّا بائسًا ووحيدًا. إنّ التماثيل قابلة للكسر بالتأكيد؛ تسقط بسرعة خاطفة، وقد تثير الإعجاب عندما تكون منصوبة ثابتة، لكنّها ليست حرّة. أنا لا أؤمن بسياسة كتلك. على السياسيّ أن يكون حرًّا كي يتمكّن من تأمين الحرّيّة لمواطنيه، وأن يعطي الفرص للناس كي يصيروا أبطال قصصهم. لا لحجب المعرفة. لا للعبث بالحريّات. ولكي ننقذ شبابنا من المآسي العديدة التي تزورنا، يجب أن نعطيهم الأمل. لا الأمل الكاذب، المضلِّل، المتبرّج، كما تقول أنت، بل الأمل الحقيقيّ، فوحده سيحرّرنا من الدمار. الأمل هو ذلك الصبي، دليلنا للتوغل في مغامرات أخرى.

وأنت ذكّرتني بالمصارعين والقتل الكثير. من أنا كي لا أوافق على هذه المشاهد المتكرّرة للمنافسين والمشاركين؟ لأنّ أولئك الذين يشاهدون ويهتفون هم على قدم المساواة أو أكثر قسوة من مرتكبيها. أحتقر هذه الأعمال التي يقوم بها الإنسان، ولكن لا أحتقر الإنسانيّة. فإن أسوأ من خيبة الأمل في الوعود هو عدم وجود الوعود.

كلّ سنة، أقترح على الشباب أن يزرعوا الحقل، كما أفعل أنا. وأطلب منهم أن يجدّدوا وعودهم في رأس السنة، قبيل دخول السنة الجديدة، وأدعوهم لتدوين بعض الأهداف التي يبغون تحقيقها. وكثيرًا ما أسمع بعض المشاركين يقولون إنَّهم لم يحقّقوا شيئًا ممّا وعدوا أنفسهم به في السنة السابقة. أتعلم يا صديقي، قلقي الرئيسيّ هو الاستمرار في التحريض عليهم بأن لا يتوقّفوا عن الإيمان بأنّه وبالرغم من كلّ ذلك فمن المهمّ أن

يكون عندنا أهداف، ففي السنة القادمة قد تكون الأشياء مختلفة. وأنا أؤكّد لك أنَّ الكثير منهم وبعد عدّة محاولات فاشلة، يتوصّلون إلى إنجاز مشاريعهم.

عندما أعمل بالأرض، عندما أحضّرها للزرع القادم، لا أفكر بأنّه قد تهبّ عاصفة وتخرّب كلّ ما قمت به. ولكن وإن أتت فأهلًا بها. فالهدف من تحضير الأرض هو رؤية بذرة تنبت. إنَّها أعجوبة. كلّ يوم فيه تقدّم وتطوّر. إذا تعجّلنا في الأمور سيخيب أملنا. مع مرور الوقت، بدأت باستيعاب معنى وقت الانتظار ووقت الحصاد. وصرت أعرف أنّه بعد ذلك كلّ شيء يستأنف من جديد. من وقت إلى آخر، تظهر آفة في الزرع يجب إزالتها كي لا تفسد المحاصيل. ويجب أن نفعل ذلك بعناية، كي لا يموت كلّ النبات، والآفات موجودة ولست أدري من أخترعها ولكنّها لن تجعلني أتخلّى عن أكون مزارعًا.

في السياسة أيضًا ثمّة آفات، ولكن التربة خصبة، فلا تستسلم، يا صديقي. وإن كنت لا تريد شَغْلَ مناصب القيادة، فقُدْ حياتك نحو التعايش الحسن. يمكنك، في الفصول الدراسيّة وفي زوايا شوارع الحياة، تحويل ألمك إلى محبّة. نعم، هناك أصدقاء، وأنت تعرف ذلك. هل تذكر القطّ الذي حدّثتك عنه في الرسالة الأولى؟ يتعايش جيّدًا مع الكلب، ولا تعجب فإنّه حتى يتعايش بشكل جيّد مع بعض الطيور البريّة التي تطير في المنزل. جميعهم تعلّموا التعايش المشترك.

لا أعتقد، ولا أعتقد أنّك تعتقد أنّ جميع السياسيّين يتّصفون بالحسد والجشع وأنَّهم جميعًا يريدون تدمير الماضي. نحن ندرك أنّ التعميم مبدأ للظلم. وأدرك أيضًا أنّه من المتعب فصل العادلين عن الظالمين، والصالحين عن الآثمين. لا أوافق على النظريّة القائلة بأنّ البعض يولد هكذا. لا أحد يولد ظالمًا ولكنّه يتحوّل إلى ظالم وأصرّ على ذلك. أنظر إلى الأطفال. إذا لم نعلّمهم الخطأ، فسيميلون إلى العيش بسلام. المشكلة

هي في المثل، والاحتياجات، والتعليمات غير الملائمة التي ستقضي على السخاء. الطفل ليس متحيّزًا بطبيعة الحال، وفي الوقت نفسه، مليء بالأفكار المسبقة، لماذا؟

أمس، في ساحة من الساحات، شاهدت سيدتين توبّخان عاملين مدّعيتين أنّهما في وقت سابق حاولا التقرّب من ابنة إحداهما. شنّتا على الشابين هجمات مروعة، وتلفّظتا بعبارات ازدراء لأصلهما وللطبقة الاجتماعية التي ينتميان إليها، وحتى للون بشرة الرجلين! وغادرتا لاهثتين، منتصرتين. اقتربت من الشابين، أخبرني أحدهما أنّه كان متصادقًا مع الفتاة ولكنّهما أخفيا الأمر نوعًا ما لأنّهما كانا على علم أنّ الوالدة والخالة لن ترضيا أبدًا بعلاقتهما بسبب تفاوتهما الاجتماعيّ. إسمح لي أن أقول لك شيئًا قد يبدو غريبًا. لم يقم الشابان بأيّة ردة فعل. التزما الهدوء، بسلام على الرغم من الهجمات التي تلقياها، بينما غادرت السيدتان قلقتين، مليئتين بالكره ومهزومتين! فصديق الفتاة قال إنّه لن يتوقّف عن الالتقاء بها وسيقرران معًا متى سيتزوّجان. أنا لم أتكلّم إلّا قليلًا، كلّ ما أردته هو أن أقف بجانبهما، أن أتحقّق أكثر من أنّ الأعمال الرديئة سترجع ضدّ فاعلها.

هل تذكر الشاب الذي كلّمتك عنه، ذلك الذي خان وانكشف؟ سأبحث عنه. أريد أن أعرف كيف حاله. أريد أن أعرف إذا كان قد تشجّع واعتذر مرة أخرى وإذا كانت صديقته ستقبله ثانية؟ هل تعتقد حقًّا أنّ الانتقام طبيعيّ أكثر من الصفح؟ لا أوافق. إذا لم يصفح عني كلبي لأنّي أتركه أحيانًا، كيف سيتمتّع بلحظات اللقاء الجديدة عندما نكون معًا؟ هل كلبي يدرك ذلك؟ الأفضل ألّا يدركه. الصفح دافئ وكحمّام مطوّل ينظّف الجسد ويعطي شعورًا بالاستراحة.

عندما نعود من حراثة الأرض، فالاستحمام يعطينا قليلًا من القوّة التي فقدناها. وحينذاك نأكل براحة ومن ثمّ ننام جيّدًا. والعفو هكذا: نظافة،

كي تستمر الأمور في مسارها. لا أوفق على قولك إنّك بدأت بالسقوط عندما بدأت بقول «لا». هل تعرف لماذا لا أوافقك؟ لأنّك لم تسقط. التخلّي عن وظيفة بسبب رفض القيام بما يعتبر غير صحيح ليس سقوطًا. السيدتان اللتان تكبّرتا على الرجلين لم تنتصرا. لأنَّ الانتصار هو شعور يقترن بالرضا. ولا أحد يشعر بالرضا إذا داس الآخرين أو أثقل عليهم. إنّ الحاكم الذي يلبس أقنعة ويعمل، في الخفاء، على عكس ما يعظ به في الأماكن العامّة ليس منتصرًا. أنا متأكّد من هذا. وهو الضمير يأمرنا ولا يتخلّى عنّا أبدًا.

أمَّا أنا يا عزيزي مور، فلن أغرب؛ بل على العكس، إنّي أفضّل مواجهة الحاضرين على قبول المنافقين الذين تركونا. وهي معاركنا التي تعززنا وهي المعرفة التي تمكّننا من الذهاب إلى أبعد، لذا، لا نفترض أنّنا أحكم الناس في العالم. إن حكمتنا ما زالت قيد البنيان، في متتالية حسابيَّة وهندسيَّة، اعتمادًا على قدرتنا في مراقبة أخطائنا وأخطاء الآخرين والتعلّم منها. وأكثر: الاستمرار في الحفاظ على أهدافنا.

التخلّي عنك هو التخلّي عن الأمل وهذا ليس مناسبًا لنا، فليكن الأمل هو رباط صداقتنا.

آمل بالمساهمة خلال هذا الشتاء العاتي، الذي كان يجب عليه أن يغادر، ولكنّه يصر على البقاء في منزلك. وأنا على يقين أنَّه يومًا ما سيزورني وأعلم أنّه عندما سيحدث ذلك يمكنني أن أعوّل عليك، صديقان نحن، أليس كذلك؟

سقراط

أريد رفقة الحبّ في كلّ الفصول. الحبّ
الذي يجعلني أحبّ الآخر وأحبّ نفسي
أيضًا

الرسالة العاشرة

عزيزي سقراط،

أشكرك على كلامك. أعتقد أنّي بالغت في رسالتي الأخيرة. وأنت على حقّ فالتعميم ليس أبدًا اختيارًا حسنًا لمحاولة تفهّم أعمال البشر، لأنّنا بهذا نخاطر بالحكم المتسرعّ فضلًا عن ذلك، هناك مسألة أخرى: عندما يكون ألمنا شديدًا، قد يؤثّر هذا على رؤيتنا. فاليوم، أنا أحسن. لقد كتبت رسالتي السابقة بعد وقت قصير من تلقّي زيارة مزعجة، وقد كنت ما أزال تحت تأثير تلك المشاعر، ممّا أدّى لعدم الانتباه للكلام الذي كتبته ويبدو أنّ رسالتي أظهرت لك عدم صبري. أتى سياسيٌّ لزيارتي، ولم أعرف الداعي لها، فليس لدي أيّ شيء أقدّمه له إلّا كوننا مختلفين اختلافًا جذريًّا. وأخبرني أن بعض الناس الذين كانوا أمس يقفون إلى جانبي يبْدُون آراءًا لئيمةً حول ضعفي. وبعد كتابتي لك، شعرت بالضعف. أنا أيضًا عندي غرور، على الرغم من أنّني أريد أن أنكر ذلك. كلماته الكريهة، زادت شعوري بالوحدة. لماذا نهب السلطة لمن لا يستحقّها؟ وما زلت حتى الآن أفكر بسبب زيارته لي. ألمجرد إعلامي بالأخبار السيئة؟ ما يحفّز الرجل على السير في هذه الطريق؟ وإن كان ذلك قصده فلقد نجح ولكن ليس لموهبته، بل لعدم قدرتي على التجريد. كان كافيًا ألّا أبالي بقصده وأمضي. ولكنّي لم أفعل ذلك، لأنّي بالتأكيد، أنا رجلٌ مغرورٌ أيضًا. أريدهم أن يذكروني لتصرفي الأخلاقيّ. وأعتقد أنّي أرتكب الأخطاء جرّاء هذه الحاجة. ينبغي على من هو أخلاقيّ أن يكون أخلاقيًّا دون الاهتمام

بالتصفيق له. ولكن كان ذلك جيّدًا. كان يتوجّب عليّ أن أعرفَ، أنا من يحتقر أخطاء الآخرين، أنّي أرتكبها أيضًا! فيا سقراط، إن الغرور إدمانًا يجعلنا أغبياء. والرسالة التي كتبتها لك كانت مليئة بالغضب والغضب أيضًا يؤدّي إلى الغباء.

أنت تفهّمت شتائي الطويل. وهذا لا شكّ يعود إلى الصداقة التي تجمعنا. حتمًا إنّ الناس مختلفون، وداخل هذه الاختلافات، يجب أن نتعلّم أن نعيش مع الأخطاء والنجاحات؛ كلّ واحد يتسامح أكثر أو أقلّ مع أخطائه ومع أخطاء الآخرين. لقد كبرت في العمر وعلى الوقت أن يجعلني أكثر تسامحًا. ينبغي أن تكون المعرفة نورًا يُضيء الطرق. تتسلّط العقبات علينا فقط إذا استسلمنا أمامها. لقد غادر ذلك الزائر غير المرغوب فيه مليئًا بسلطة أنا منحته إياها. وخلافًا لصديقيْك العامليْن أمام السيّدتين المتهجّمتين. وقد فهمت ما قلته عن الصداقة. أما أنا إن كان عندي أصدقاء فهم قليلون جدًا، وأنت بعيد. أشعر بمرارة، ربما بسبب قرب النهاية. أنا لا أعرف كيف أو متى ستكون مغادرتي. لا أعلم ماذا سيقول عني الذين بقيوا، كلّ ما أعلمه أنّه اقتراب ما لا أعرفه، وهذا يسبب لي الأسى، إلى أين نذهب فيما بعد؟ التفكير بالموت ينبغي عليه أن يساعدنا على الحياة. لا حول لنا. مجرّد عثرة صغيرة تسقطنا فنغيب. مرض ما أو الوقت. إنّ سقوطي كان رمزيًّا أكثر منه فعليًّا. الإصابات الناجمة عن رجم الحجارة فشلت في مسّ هشاشة المادَّة، فها أنا ما زلت هنا. ولكنّي هرمتُ يا صديقي. وسأغادر قريبًا، وماذا بعد؟ سوف يغادر الآخرون أيضًا. هل يا ترى كان مهمًّا الجهد الخارق من أجل سلطة لم تغيّر أيّ شيء من مجرى التاريخ؟ هل يا ترى كان لمعاناتي التي عشتها والتي فرضتها على عائلتي وأصدقائي أيّ معنًى؟ هل كان من الأفضل العيش مستورًا بدلًا من كشف نفسي أمام حكّامي؟ كيف يمكن الحصول على هذه الأجوبة؟ أنت ما زلت شابًّا ومن الممكن أنّك لا تتساءل حول النهاية. والتفكير بها أصلًا

ليس إجباريًّا. كنت أفضّل لو فكرت بأشياء أخرى، ولكن من يأمر على الفكر؟ أفكّر باليوم الذي لن أكون فيه وما زلت أخشى الإدانة. كثيرون ممن حكم عليهم كانوا أمام خيارَيْن: الموت أو الموت، أو يفقدون حياتهم أو يفقدون سبب حياتهم. أنا يا صديقي أفضل الخيار الأوّل. لأنِّي لن أنكر أبدًا ما يمنح معنى للحياة. عاجلًا أو آجلًا سأموت، ولكن لو كنت أحلم بشيء أتركه لكنت رغبت أن يكون لأعمال الناس معانٍ أكثر. زمنٌ محزنٌ هذا الذي أهملنا فيه قدرتنا على خدمة البشريّة. محزن هذا الزمن الذي نخجل فيه من الحبّ.

بالتأكيد لا أريد أن أعيش بدون حياة. وها هو فصل الشتاء يهمّ على الرحيل، ولكنّه سيعود. هذه دورته، وبما أنّنا ندرك هذا، لا داعي للخوف.

أريد رفقة الحبّ في كلّ فصل. أريد رفقة الحبّ في كلّ الفصول. الحبّ الذي يجعلني أحبّ الآخر وأحبّ نفسي أيضًا. إنّ إعطاء السلطة إلى شخص ما ليدمرني ليس حبًّا للذات، وأن أبقى متنسِّكًا في مذكراتي العفنة، معمِّمًا المفاهيم الخاطئة للإنسانيّة، ليس حبًّا للآخر. الحبّ عمل وأيضًا انعكاس. إنّنا في الآونة الأخيرة، لا نفكّر إلّا القليل أو لا شيء تقريبًا. نعتقد أنّ زمن الآخرين أفضل من زمننا، لكنّنا نخطئ في ذلك. ففي التعايش البشريّ، ثمّة صعوبات دائمًا. هذه طبيعتنا غير المتجانسة وغير المتكاملة. ولم تُبْنَ بطريقة متسلسلة. كلّ ولادة هي تجربة فريدة من نوعها، وأنت تعلم هذا جيّدًا. وهذه التجربة تقلقنا ولا يمكن أن نتصوّر مسبقًا كيف سنكون. والعيب أنَّ معظمنا لا يعرف هذا.

تخيّل الحياة في منزل دون أبواب. أشخاصٌ يتدافعون وينظرون لسبب ما، إلى الاتجاه عينه. انفتاح كليّ لكن لا أحد يخرج؟ ما السبب؟ لا أحد يعلم. كلّ ما هو معلوم، أنّهم كلّهم في المكان ذاته يتنازعون كي يتمكّنوا من التنفّس، بينما الهواء مستباح في الخارج.

عندما قرّرت التخلّي عن السياسة، استوحيت في هذا التشبيه. كنت

أرغب في التنفس. ولكن هل استطعت؟ لا أعرف. أعرف أنّني غادرت. ربما لأنّي كنت أهتم أكثر من اللازم بالبيت، ومن فيه يتقاتلون وقد تكون ذكرى عدم التمكن من التنفس ما زالت تؤلمني.

هنا، في الخارج، ما زال هناك أشياء كثيرة لنقوم بها. لعلّني لم أعتدْ بعد على الحرّيّة. هل تفهم ماذا أقصد؟ لقد حان وقت المغادرة، وأنا أتساءل: «هل كان يستحقّ كلّ هذا العناء؟ أو بالأحرى، لا أتساءل لأنّي أخاف من الجواب. إذا كان الجواب: لا، لم يعد يمكنني عمل أي شيء. أو هل يمكنني؟ وماذا لو حكموا عليّ قبل المغادرة، أو بالأحرى، إذا عجلّوا في مغادرتي؟ ولديهم السلطة للقيام بذلك، أكان معي أو معهم، أودّ أن يكون هناك أمل، ولكنّي، اليوم، لست إلّا رجلًا يشكّ. هل يا ترى هرمت قبل أن أفهم ما يلزم؟

يا سقراط، لو كنت مزارعًا مثلك، لو كنت فلاحًا مثلك؟! هل يا ترى كنت أكثر سعادة؟ كيف لي أن أعرف؟ لا أريد أن تشوّه متاعبي صفاءك. كان ينبغي أن تكون الأشياء على عكس ما هي الآن؟ أليس كذلك؟ أنت الشاب فكان ينبغي أن تكون أكثر قلقًا وتساؤلًا وأنا الشيخ كان ينبغي أن أكون أكثر هدوءًا ولكن من يقرّر هذا؟ أنا أخذت قراراتي، زرعت وحصدت نتائج اختياراتي، وها أنا هنا وحدي. إنَّ الوحدة ليست سيّئة عندما تعرف كيف تتعامل معها. ولكنّي لا أعرف إن كنت أنا أعرف. هذا غريب، أليس كذلك؟

أشعر بارتياح عندما أكتب لك هذه الرسائل. إنها تحرّك ما تبقّى فيّ بعد كلّ خيبات الأمل، وعدا عن ذلك إنَّها توحّدني بك. كم هو سيئ أنّنا بعيدان للغاية. الشعور بأنّك بخير يشعل فيّ، بشكل ما، شعلة زمن يمكن بناؤه حتى بعد رحيلي ورحيلك. لكن من المؤسف أنَّ الشهرة الآن للفوريّات، وأنّنا لا نزرع نبات يستغرق وقتًا طويلًا لينمو، ولكنّه من ناحية أخرى، يتأخّر أكثر ليفنى. كلّ شيء بلا قيمة، وما كان ينبغي أن تكون

الأمور هكذا. على الرغم من أنّ وجودنا في العالم يستمرّ لمدّة أقلّ ممّا نرغب، هناك أشياء قمنا بها يجب أن تستمرّ.

هناك مجموعة من المساعدين السابقين الذين يرغبون في استجوابي غدًا. ويبدو أنّهم يتوقون لرحيلي. وأنا متأكّد أنّهم سيحكمون عليّ. لا فائدة لأيّ تبرير أو لأي حجّة، لم يعد هناك وقتٌ كافٍ لجعلهم يغيّرون رأيهم وإبعادهم عن هذا الشعور الغريب بقتل من كان أمس رفيقًا لهم. سوف يكونون بلا هوادة، لن يتفوهوا بشيء تقريبًا، ولن يسمحوا لي بالتفوّه إلّا بالقليل. لن يولوا أيّ اهتمام لما سأقوله أو لما فعلته ولا للإنسان الذي كنته. سيجلسون وسأقف. سأكون مرهقًا ولكن واقفًا. سأموت منتصبًا. لن أنكر القيم الثمينة التي دافعت عنها طوال حياتي. سأبقى منتصبًا، متألِّما لكن على قدميّ. منهكًا، لكن على قدميّ. يا صاح، بطريقة ما، يعود لك الفضل على هذه الشجاعة.

قد يجد البعض سذاجة في حججهم. وسوف يأتي آخرون لانتقاد بعض ملاحظاتهم أو نواياهم. ولكن لن أعبأ بذلك. منتصبًا، شامخًا، سأبقى، لكن دون غرور أو غضب إن كان ذلك ممكنًا، وإن لم يكن، سأحاول أن أعادل تلك الرذائل بفضائل.

صديقك، صديقك القديم.

لا يمكن لأحد أن يشعر بالسعادة إذا سبب الحزن للآخرين. ربَّما لأنّه قد تمّ تصميم هندستنا وخلقنا كي نكون بحاجة حقيقيَّة للتعايش.

الرسالة الحادية عشرة

عزيزي مور،

قد تكون هذه مراسلتنا الأخيرة. فأنا ضحية اتهامات أيضًا. هنا، في الحقل، هناك من يخطّط كي يشوّش منهجي. وممّا يدهش هو العدوانيّة والتهجم بالأكاذيب. أنّها اتهامات كاذبة مغلفة بعناية لاهتمامي بالشباب. فأنا بالنسبة لهم ضار للشباب، لأنّي أتحدّث إليهم، لأنّني أستمع لهم. وهكذا يصبحون أكثر تطلّبًا، وهكذا لا يطيعون ما يعتبرونه غير كافٍ. بدلًا من العمل على تناسب ما هو غير متناسب، يرغبون بالبحث عن جانٍ. ومن يتّهمني هم الذين بالأمس كانوا يقفون بجانبي. ففي بعض الأحيان كنّا نأكل معًا، كنّا نبتسم معًا ونزرع البذور والآن أنا المسيء. يبدو أنَّ الأدوار قد انعكست. فأنت تبدو آملًا في رسالتك الأخيرة وأنا الآن أكتب هذه السطور حائرًا.

لن أفقد الأمل. لم أفكر أبدًا أنَّ الخير أداة لإرضاء البعض. ولأنّ هذا البعض لم يعد يستحقّ الخير، فسوف يحتاج المرء إلى التوقّف عن عمل الخير. لا، العطف ليس كالموسيقى. فالآلات تنتج ألحانًا تتجاوز حُدود المستمعين. الموسيقى تتجاوز إلى ما بعد. وإن كان هناك شخص واحد يستمع، سوف يحدث شيء جديد. وللكلمات موسيقى كهذه، وللأيدي أيضًا عندما تحاول أن تفسّر للبذور أنّ الموت جزء من الحياة وأنَّ الجدليّة هكذا: من البذور الميتة تنبت البراعيم وبعدها تأتي الزهور والثمار. هكذا حال الطبيعة وهكذا حال الإنسان. نموت وتُوْرِث الكثير ممّا كان عندنا

من جرأة لنفعله. لا أتوهم أن يكون هناك إجماع حول ما أفعله، بل على العكس من ذلك. إنِّي أزرع فحسب. وأقدّر الولادة. ربما أسبّب القلق عندما أتكلّم، ولكنّي أفعل هذا فقط لسبب واحد: لأنّي أعتقد أنّه حتى في الأراضي النتنة، توجد بذور أمكانيّات مخفية. وهذا كَمدة حَملٍ لم تكتمل. يا لأسى أطفال حرموا من حقّ الولادة. يا لأسى شباب حبالى بإمكانيات لن يتاح لها الولادة. هذا ما أؤمن به. هذا ما أقوم به.

عندما أقرأ وأعيد قراءة رسائلك، وأنا أشعر أني أعيش شيئًا من عذابك. نحن بعيدان وقريبان في الوقت ذاته. تجرّأنا وحلمنا فنددونا. يحاولون تجريدنا الآن من أثمن شيء نملكه الحياة، ولكنّهم لن يستطيعوا. دون غطرسة، أقول لك إنّنا باقون. سنترك بذور أعمالنا في الآخرين وسيدركون أنَّنا مررنا من هنا لسبب ما ولعلّ أفعالنا تدفع رجالًا ونساءً آخرين على ألَّا يقوّسوا ظهورهم.

لقد بذلت شبابي من أجل قضيّة، وسأبذل حياتي للقضيّة نفسها. لا أقبل التفريق. لذلك، أتكلّم مع الجميع، ولذلك أحاول أن أبدي لجميع من ألتقي بهم في دربي أنّ الذكاء ليس امتيازًا لقلّة، لكنّه موجود في كلّ الناس. يا لتلكما السيدتَين المتحيّزتَين. إنّ الحبّ، متى وُجد، سينتصر. ذلك الشاب الذي كلّمتك عنه فشل بالحصول على عفو من حبيبته. لا أعرف الأسباب ولكنّه يبدو أحسن قليلًا ومستعدًّا لقصةٍ أخرى يكون فيها أكثر عناية بمشاعر الآخرين وأكثر تفهّمًا لمعنى الحرّيّة. فالخيارات الخاطئة تؤدّي إلى أماكن قليلة الدفء.

أعلم يا صديقي أنّ آخرين آتون بعد رحيلنا. أعلم أنّ ما نقوم به هو قليل، مقارنةً بما هو آتٍ. لن أركع بسبب حكم أولئك الذين ينزعجون مني. لست نادمًا على أيّ شيء فعلته لمساعدة إخوتي كي يكونوا أناسًا أفضل. وقد تمكنت من التغلب على الغرور الذي يتوقّع التصفيق. لا تصفيق، أعمالي تتجاوز ذلك. في العزلة فجرٌ، عندما أقوم بإعداد الأرض

ورمي البذور، عادةً لا يكون هناك من يشاهدني، إلّا أنَّه في بعض الأحيان قد يحدث أن يكون هناك عاملًا آخرًا دائبًا على عمله. ومع ذلك، أمارس عملي دون تصفيق، دون استهجان، ودون التفات من الآخرين. والأرض تتلقى محبّتي متنبّهة لقصدي. وفي بعض المرّات كنت أشعر بذروة الغبطة أمام حياة جديدة بدأت بالظهور. وشعرت بالغبطة ذاتها أمام أناس أيضًا. عند البحيرة، أزلت بعض الأحجبة، وأظهرت عيب وجوه كانت تخشى أن تُكشف. غادرت بثبات كي أتجنّب الوداع. واستُقبلت ببرودة، ولكنّي بسبب حميّتي، لم يتمكّنوا من إحباطي. وفي دفء الآخرين حاولت أن أكون مقتصدًا، لأنّ الآراء تأتي وتذهب، كالفصول.

عندما اقتربت النهاية التقيت بك. التقيت بشخص كان أيضًا يستعدّ للذهاب، ولكن مليئًا بالضغائن، ولكنّي علمت للحال أنّها جزء فقط من قشرة. وكنت قد تعلّمت أنّ قشورًا كتلك يجب أن تُعامل بعنايةٍ كي لا تسبّب بجراحٍ. وأنت يا صديقي كنت مجروحًا، كما أنا الآن. كنت مجروحًا بالاضطرابات والمفاجآت غير المرغوب فيها من قِبَل من يحاول أن يشوّه مَن نحن. أعترف لك أنّي عندما كتبت لكي أرفع من معنويّاتك، كنت أفعل ذلك من أجلي أيضًا، والنصائح التي نصحتك بها كانت تلك التي كنتُ أنا بحاجة اليها لمواجهة الظلم. وكم هو الظلم مؤلم يا مور! كم هو مؤلم!

عندما كنت صغيرًا، طالما شعرت بخيبةٍ، ككلّ الأولاد. لم أكن صبيًّا هادئًا وكانت أسئِلتي كثيرة، أسئلة بعد أسئلة، أسئلة ومزيد من الأسئلة. كنت أفتقر للاهتمام، وقد يكون ذلك سبب رغبتي بمساعدة الآخرين. وكنّا أنا وشكوكي. لماذا هذا؟ لماذا ذلك؟ من أين أتينا؟ إلى أين نذهب؟ ماذا نفعل هنا؟ كانت تلك مجرّد أمثلة قليلة لأسئلة كثيرة كنت أكرّرها، خاصّة عندما علّموني أنّ السؤال أهمّ بكثير من الجواب. هل هذا صحيح يا ترى؟ وتبعت الاسئلةَ أسئلةٌ أخرى. لماذا العنف؟ لماذا الشرّ؟ لماذا

الظلم؟ وغيرها من أسئلة أكثر تحديدًا: لماذا يقدر أخ أن يقضي على أخيه؟ لماذا يضرب بضراوة والدٌ ابنَه؟ لماذا يهين زوجٌ زوجتَه بعدما شاركها الحياة خلال سنوات وسنوات؟ لماذا يكذب الناس؟ لماذا الباطل موجود في العلاقات الإنسانيّة؟ لماذا تمارس السلطة سحرًا قادرًا على أيّ عمل مريع للحفاظِ عليها؟ لماذا يعتقد الناس أن الحبّ وعمل الخير سذاجةٌ؟

أرحلُ، يا صديقي مليئًا بالشكّ حاملًا أيضًا بعض من اليقين ولو كان عابرًا. لا يمكن لأحد أن يشعر بالسعادة إذا سبّب الحزن للآخرين. ربّما لأنّنا خلقنا بهندسةٍ مصمّمة كي نكون بحاجةٍ حقيقيّةٍ للتعايش. من الغريب جدًّا الاعتقاد أنّ طفلًا برغم كلّ إمكانيّات الذكاء التي يملكها، سيكون قادرًا على البقاء على قيد الحياة دون رعاية، بينما الأسماك، منذ ولادتها، تكون مستقلّة. نحن نعتمد على بعضنا البعض، ولذلك لا ضرر يفلت من العقاب. حاشا لي ألّا أعتبر أهميّة المحاكم، ولكن هناك محكمة وراء كلّ المحاكم والتي هي جزء من كلّ إنسان. من يهين الآخر يهين نفسه. لم أرَ يومًا شخصًا سعيدًا بعد ممارسة الظلم. النشوة ليست سعادة. وخطب المنتصرين لا تُقنع. وهذا صحيح في السياسة وصحيح في الحياة.

يا صديقي العزيز، إنَّ السياسة ضرورة. أناس يعيشون مع بعضهم البعض ويعتنون بالمدينة، التي هي مساحة مميّزة للحياة. إنّ السياسة فنٌّ لأنّها تتطلب إلهامًا، وشعرًا وحساسيّة. والسياسة علمٌ أيضًا لأنَّها تتطلّب دراسة. لا يمكنك ارتجال سياسيّ. فالمسار لا يُبنى إلّا بالرعاية والمثابرة. فنّ وعلم. عاطفة وعقل. والمثاليّة هدفنا. لا سياسة دون أمل. نكون مهندسي الأمل عندما نتمكن من إزعاج من هم على الهامش. إنَّ الجميع مؤهّلون للقيام بالأدوار. إنّ السياسيّ الحسن لا يطلب فيلقًا من الخدام أو من التابعين، بل نساءً ورجالًا أحرارًا قادرين على القيادة. أشخاصًا قادرون على القيام بأدوار، نعم!

ويتّهموني أنّي مفسد. لكنّهم هم المفسدون، الذين يحجبون المعرفة عن

أناس كفوئين، هم العاملون على إقناعهم بأنّهم غير قادرين، لكن في الواقع كلّ ما يفتقرون إليه هو الفرص. أنا رجلٌ قلقٌ. قلقٌ بمعاملتي للأرض، قلقٌ بمعاملتي للناس ومهنتي هي الزرع، هذا، لا غير أو بالأحرى، هذا كلّه. لأنّي غدًا لن أكون هنا ولكن بعض البذور التي سقطت من بين أصابعي والكلمات التي نبتت من أفضل نواياي يمكنها أن تؤلّف مشهدًا آخرًا.

لذلك أرحل وبشيء من الوهم المقدّس ربَّما بأنِّي باقٍ.

سقراط

علينا أن نتعالى على التصفيق. سوف يحظى
الآخر بمعنى عندما أنا أعطي معنى لنفسي.
ودون التوصل إلى ذلك، ستبقى العلاقات
مقلقة. لا ينبغي على الرغبة أن تخنق الوعي

الرسالة الثانية عشرة

عزيزي سقراط،

لماذا الوداع هو أكثر غرابة من اللقاء؟!

أمس، كنّا ما نزال نتعارف واليوم ها نحن نودِّع بعضنا البعض. في اللقاءات وعود لا تكون دائما موجودة في الوداع، لأنّنا ولسبب ما نترك إمكانيّات. نتخلّى أو لأنّنا نفقد الإرادة أو نفقد الحياة. وفي بعض الأحيان يجعلوننا نتخلّى، وفي هذه الحال، لا يسعنا إلّا القليل. إنّ التهمة التي يلقونها عليك ظالمة ولا تحتاج لي كي أقول لك هذا. ولكن مع الوقت سيظهر للجميع كم أخطأ أولئك الذين أرادوا التخلّص منك. وقد أدانوني أيضًا، كما أُدِين آخرون. لا يحقّ لا للأغلبيّة ولا للأقلّيّة بأن تُدين من يفكّر أو يتصرّف بطريقة مختلفة.

علينا أن نتعالى على التصفيق. سوف يحظى الآخر بمعنى عندما أنا أعطي معنى لنفسي. ودون التوصّل إلى ذلك، ستبقى العلاقات مقلقة. لا ينبغي على الرغبة أن تخنق الوعي. هناك كثير من الموارد الدنيئة من قِبَل من يعكس على غيره عدم شجاعته في العيش. الفضيلة هي عكس ذلك تمامًا. الفضيلة هي نوعيّة أدبيّة وفكريّة تدفعنا إلى عمل الخير.

عندما حدّثتني عن الاستثناء، أخذت أفكّر بالأمثلة. فالفضيلة، التي لا غِنى عنها للسياسيّ، تأتي من التعلّم والمثال. العلم بالفضيلة ليس استطراديًّا فحسب، بل هو عمليًّا أيضًا. إنّنا نتعلّم كيف نبني بينما نبني، ونتعلّم العزف حين نعزف. ونتعلّم كيف نكون عادلين خلال ممارستنا للعدل.

وهي الفضيلة التي تؤمّن السعادة.

عندما بدأت مساري في السياسة، كنت مقتنعًا أنّ الدول توجد من أجل الشعوب. وكنت متأكّدًا أن لا جدوى من السياسة دون فضل الرجال. وكنت أعلم من الأمثلة ومن القراءة، أنّ قيمة الفرد هي التي تعطي الحياة للجماعة. وهذه هي القيمة التي تكرّم البناء الاجتماعيّ الذي يضمن استمراريّة التعلّم. نحن جيّدون كي نكوّن الجماعة، والجماعة تتكوَّن لضمان أن نكون جيّدين.

لا سياسة دون مثال. والمثال كالأمل، لا يُحدَّد، بل يُعاش. والمثال يعلو بنا وينزعنا من وحل المسابقات ويجعلنا أكبر، وكذلك، فمن الأعلى، يمكننا أن نرى أفضل، ومن الأعلى، يمكننا أن ندرك أكثر ما يحدث وما ينبغي فعله. وعندما نقع، يجب علينا أن نقف. كما يحصل في كلّ الأنشطة النبيلة. على من يخطئ إصلاح خطأه. وفي السياسة، هذا ضروريّ أكثر. لا ينبغي تدمير أولئك الذين يرافقونا، أولئك الذين يحتاجون إلينا كمثال ليحتذون به. إن كنّا قد صُنِعْنا من مادّة تتعرّض للخطأ، فقد صُنِعْنا أيضًا من المادة ذاتها التي لا القدرة أن تعطبنا. المهم ألّا نخطئ في الجوهر، فيما يتعلّق بالحياة، بالحياة الكريمة. إنّ معاملة الآخر كغرضٍ لهو أمرٌ مهينٌ جدًا. ولا يمكن النظر هكذا للشعب أبدًا. وهذا ما يكشفه مفهوم بطل القصة، ولمرّة أخرى. وما قمت به أنت يا سقراط كان رؤية ما لا يراه آخرون وهو أنّ الذكاء موجودٌ في الجميع كما المواطنة موجودة أيضًا في الجميع. نحن بحاجة لطيِّ الصفحة والمضيّ قدمًا في قصة تحضّنا قبل أن تحكمنا. نحتاج لكتابة نصٍّ جديدٍ، يعيش فيه الأشخاص بحرّيّة، دون خوف من كونهم مختلفين. أناس يُعامَلون باحترام. أمّا الكلمة التي نحتاج إلى حفظها وتطبيقها وعيشها مع الآخرين ومع أنفسنا، هي: الاحترام!

خلال حياتي السياسيّة، لم أعبأ بالتعامل مع الأمور الصغيرة، الخسيسة، كي لا أصير صغيرًا، خسيسًا.أن تنظف الأوساخ لا يعني أن تتوسّخ.

فتنظيف ما وسّخه الآخرون ممكن وضروريّ دون كسل ودون خوف. وعلاوة على ذلك يجب أن تكون شجاعًا لأنَّك مختلفٌ. سيأتي وقت يُحترم فيه الرجال فقط لطبيعتهم، وليس لثروتهم أو لممارستهم الافتزاز. لا، أنت لن تُدان ولا أنا سأدان. لن نهبَ أولئك اليائسين تلك السلطة. دعهم يحكمون علينا. دعهم يشعرون أنّهم يملكون بعضًا من السلطة. إنّ الحسد يمنعهم من العيش معنا. وهنا، أريد أن أشكرك على تصحيحك لي: لا نكون منصفين إن قلنا إنّ جميع السياسيّين حاسدون. في مدينتي الفاضلة أحلام كثيرة ما زالت حيَّة، كانت نائمة فقط ولكن سخريتك أيقظتها. أنت وصلت على مهل وجعلتني أدرك أكان في المدينة أو في الريف، نحتاج إلى المحراث، ونتوقّع وقت البذر. ليتني كنت مزارعًا وفلّاحًا. ليتك كنت مدرّسًا، أو سياسيًّا! إنّ المهن ليست أقلّ أهمية من النوايا، وممارسة النشاط هي نبيلة كفكرة النشاط ذاتها. والسياسيّ لا يختلف عن تلك المهن أو تلك النشاطات. لم يولد من عالم آخر، مع أخطاء أقلّ أو أكثر. هو ثمرة جنس البشر المعرّض للأخطاء. إنّ السياسيّ يتخلّى عن بعض أنواع الراحة كي يجهّز نفسه للمعركة، كجنديّ، كجنديّ شجاع.

عندما كنت في السلطة، يا صديقي، عانيت من غضب من كان يتطلّب اهتمامًا. وكان الخبثاء يريدون زعزعة اِستقرار أعمالي. عانيت من ظلم من حاكمني، لتقاعس ظنّوه مني أمام رغباتهم. ولكن ليس المقصود من هذه السياسة التقليل من رغبة هذا أو ذاك. وبالإضافة إلى ذلك إنّ السياسة ترعى الهيئة بكاملها. عانيت من التعليقات اللئيمة عندما تنازلت عن مركزي في السلطة. كنت كمن مات وحده واستمرّوا هم. انغلقت الأبواب. وصرت فعلًا مستغنًى عني. من البعيد، رأيت الضرر الذي لحق بذاكرتي. رفضت أن أقوم بالدور الذي كتبوه لي، لذلك كان يجب أن يبحثوا عن ممثلٍ آخر.هرمت وأنا استطعم الأحزان. إنّي ارتكبت الأخطاء أيضًا. لم أعلم كيف أتجرّد وأخترع حياتي ثانية. وما اتّهمْت الآخرين به

شعرت به. وكنت مفتونًا بالسلطة أيضًا وكنت قد اعتدت أيضًا على المنافقين المتملّقين. وقد يبدو غريبًا ما سأقوله: كنت أحنّ للسلطة وهذا ما جعلني أشعر بالعيب. كنت أريدهم أن يذكروني، وليس فقط كشخصٍ كان يتوقّع أن يكون محترمًا. أردتهم أن يعتبروني زعيمًا وأن يعترفوا بزعامتي. نعم، لقد أخطأتُ، يا صديقي، وذقت طعم الهزيمة.

لكن الوقت كان حليفي الكبير وأتت السنون بالنعومة المطلوبة. وعشت ازدواجيّة الأمل والازدراء بالحياة. تعذّر عليّ العثور على حالة متوسّطة، حتى تعلّمت كيف أعيش مع نفسي، مع آلامي، مع أخطائي التي ارتكبتها ومع القيم التي لم أغفلها وهذا هو الفارق. أنظر إلى الوراء، وابتسم، أستلذّ بطعم النصر. لم أخُن مثالي أبدًا، لم أستخدم التبرّج الذي طالما أدنته. كنت أنا نفسي، كاملًا، عِشت حياتي علنًا دون اختباء، وعندما عانيت أظهرت معاناتي. لم أتزيّف كي يعتقدون أنّي كنت على ما يرام، لقد شاهدوا وقوعي، سقطت، ولكن على قدميّ بقيت واقفًا. لقد أصبتَ، إنّ السلطة لا تفسد المرء بل هو من يفسد السلطة. والسلطة تكشف المرء لا غير، تكشف نضجه في الممارسة أو وضاعته في البحث عن الارتزاق.

كلّ الرجال يحلمون بالسلطة، وهذا ليس سيئًا. وهذا طبيعيّ. لكنّهم بحاجة فقط لفهم ما هي السلطة وسأجرؤ على القول: إنّ السلطة هي القدرة على فعل الخير. هي التدخّل الذي يغيّر مجرى الخطأ، هي تصحيح الظلم، هي من يرجع الحلم الذي يمنح مكانًا للمحرومين من أيّ مكان. السلطة تحمي من هم بحاجة أكثر وتعطيهم أدوات كي يقوموا بأدوار. هذا هو حلمي في المدينة الفاضلة، حيث لا أحد يتخلّف، ولا أحد يُستخدم كسلّمٍ أو كطريقٍ. حلمي ألا نجبن أمام ما نراه. فجبن أن نصل إلى السلطة، أن نعتاد عليها دون أن نجرؤ على بناء عالم جديد. وهناك احتياجات في كلّ الأماكن. وهناك أرض عطشى لفلاحين، لمزارعين. إنَّ

العمل الذي يُشرّف هو الذي لا يقاتل ضدّ الضمير لتبرير ما لا مبرر له. من الضروريّ أن يعمل العالم وأن ينتج من أجل تغذية أبنائه بالأمل، الحاضرين منهم والذين سوف يأتون. يجب علينا أن نشحن عملنا اليوميّ بمعنى نبيل، أن يكون درسًا في الحبّ. إنّه الحبّ ما يحوّل السياسة إلى فنّ بلا حدود. هو الحبّ ما يحوّل السياسيّ إلى قائد. وغياب الحبّ يجعل العمل السياسيّ مجرّد بحث عن المتعة والمصالح. وجود الحبّ يجعل السياسيّ قويًّا وشجاعًا ومجدًّا لا يهدأ.

إنّ رفاقك المزارعين، يا سقراط، سيتذكّرون أمثالك، أولادهم وأحفادهم أيضًا. أملك هذا الانطباع عمّا عشته: إنّ فكرة ما ستبقى وسوف تنبت بعض البذور، وهذا ما يجعلني لا أخاف الموت. لقد وهبنا الحياة معنىً.

عند الوداع، تبقى الذكريات. ينظر عامل البناء إلى الوراء فخورًا بما فعله. ففي الطوب، في الأسمنت، في البناء، هناك شيء مما ساهم به. وسوف يستوعب ذلك المكان قصص الحياة. والشيء ذاته يحدث مع المعلّم. أتذكر الطلاب الذين مرّوا بي والاحلام التي كنّا نهندسها معًا. ففي كلّ واحد منهم هناك جزء منّي. وهذه الحال مع السياسيّين. ماذا نأخذ؟ الذكريات وحسن الرفقة مع الضمير، الذي لا يتخلّى عنّا أبدًا.

قد شرّفني لقائي بك في مساء حياتي.

توماس مور

سقراط وتوماس مور
رسائل خياليّة

يقدّم لنا غبرييل شليطا، السياسيّ البرازيليّ من أصل لبنانيّ، كتابه عن سقراط وتوماس مور بقالب أدبيّ فلسفيّ جديد. الكتاب هو مجموعة رسائل افتراضيّة خياليّة كتبها سقراط آخر وتوماس مور آخر، في زمان ليس زمانهما وأمكنة غير أماكنهما.

الكتاب من أدب اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة. كلماته أبعد من الخيال وأقرب إلى الواقع. فالسياسة هي فنّ الممكن كما حدّدتها الفلسفة اليونانيّة. ولكنّها مع سقراط وتوماس مور هي أبعد من الممكن، هي فنّ ارتقاء الفرد والمجتمع إلى السعادة من خلال الحقّ والعدل.

سقراط في بلاد الإغريق وتوماس مور في بلاد الإنكليز دفعا حياتهما ثمن تمسّكهما بالحقّ والعدل وسيلة لبلوغ السعادة. هما شهيدا الحقّ. انتصر الحسد والحقد على جسديهما، ولكن فكرهما كان حياة ونورًا وقد أنصفهما التاريخ بالخلود بين الكبار من هذه الإنسانيّة.

صفحات كتاب غبرييل شليطا صفحات سياسة وفكر وفلسفة وحلم.



غبرييل شليطا محام وسياسي وكاتب برازيلي من أصل لبناني، هاجر جدّاه من بقاعكفرا سنة ١٩١٤. حائز دكتوراه في الحقوق إلى جانب دراسات عليا في الفلسفة والعلوم الاجتماعية. انتخب سنة ٢٠٠٨ مستشارًا لبلدية ساو باولو حاصدًا أعلى عدد من الأصوات في كل البرازيل. وفي العام ٢٠١٠ انتخب نائبًا فدراليًا، وعيّن عام ٢٠١٥ سكرتيرًا للتربية في مدينة ساو باولو.

في جعبته حتى الآن سبعون مؤلّفًا منشورًا، وبهذا الكتاب، يحقّق غبرييل شلّيطا حلمًا قديمًا له برؤية أحد مؤلّفاته منشورًا باللغة العربية، لغة أجداده.

ISBN 978-614-451-034-6

